مؤلفات ابن القيم
(١)



تأليف

الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

حققه نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

يوسف علي بديوي — أيمن عبد الرزاق الشوا

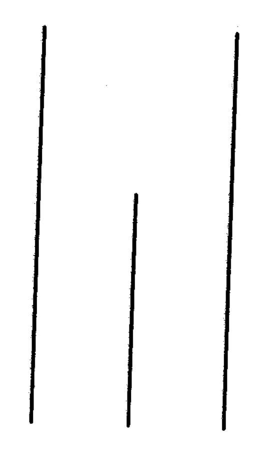


دمشق - بيروت



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم


أسماء الله الحسنى

الطّبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ تلفون: ٨١٧٨٥٧ - ٠٢-٢٠٤٤٥٩



دمشق - حلبوني - شارع مسلّم البارودي
هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢ بيروت ص.ب: ١١٣/٦٣١٨

قال ابنُ القيم:

- لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في عالم الغيب عنده دون خَلْقه، لا يعلمها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَل... حسبُنا الإقرار بالعجز، والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه.
- آيات الصفات: العناية ببيانها أهم؛ لأنَّها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبيَّنها اللَّهُ سبحانه وتعالى ورسولُه بياناً شافياً، لا يقع فيه لبسٌ ولا غموض.
- أسرار كلام الله أجلّ وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غايةُ أولي العلم: الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وإنَّ باديَهُ إلى الخافي يسير.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله الذي لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى، وصلَّى اللَّهُ على سيِّدنا محمد النبيّ الأميّ، صاحب الخُلُق العظيم، والمنزل الأسنى، وعلى آله وأصحابه أولي الدرجات الأسمى.

أمّا بعد:

فإنّنا في رحاب كتابٍ عظيم، وكاتبٍ قدير... أمّا الكتابُ فهو: **أسماء الله الحسنى وصفاته العليا**، وأمّا الكاتب فهو: **العلاَّمة ابن القيِّم**.

وموضوع الأسماء الحسنى من أبرز موضوعات العقيدة الإسلامية، وقد أمَرنا البيانُ القرآنيُّ بمعرفة هذه الأسماء، والتزامها، والدعاء بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وبشَّرنا النبيُّ ﷺ بالجنَّة إزاء مَن حفظها، وطبّقها، وأطاقها بحُسْن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها؛ لقوله ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مَن أحصاها دخل الجنة» متفق عليه.

مِن هذه الأهمية تنافس العلماءُ والمفسِّرون في الحديث عن هذا الموضوع...

ففي كتب الصحاح، والسُّنن، والمسانيد ذِكْرٌ واسع لأسماء الله تعالى ولأحاديث الصفات، منها كما جاء في القرآن، ومنها غير ذلك، بل قد بُوِّب فيها أبواب مثل: كتاب التوحيد؛ الذي هو في آخر كتاب صحيح

البخاري، ومثل كتاب: الردّ على الجهمية في سنن أبي داوُد، وكتاب: النعوت في سنن النسائي؛ فإن هذه مُفْرَدة لجمع أحاديث الصفات. وكذلك قد تضمن كتاب السُّنة من سنن ابن ماجه ما تضمّنه، وكذلك تضمّن صحيح مسلم، وجامع الترمذي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل،وسنن أبي داود، وصحيح ابن حبّان، ومستدرك الحاكم، وغير ذلك من المصنفات الأمهات وشروحها، كفتح الباري، وتحفة الأحوذي، فإن الحافظ ابن حجر جمع أسماء الله الحسنى برواياتها المختلفة، وتحدث عنها حديثاً مستفيضاً.

على أننا نجد كتب العقيدة، والتوحيد، والأصول قد خصّصت فصولاً مطولةً للحديث عن أسماء الله، وبيان معانيها وأقسامها حسب دلالتها على الذات، أو على الصفات والأفعال، كما فعل البغدادي في «أصول الدين» والإمام الجويني في «الإرشاد»، وكما فعل البيهقي في «الأسماء والصفات» وفي «الاعتقاد والهداية» وغيرها من المصنفات.

كما أنه لا يخلو كتاب من كتب التفسير من العناية بهذا الجانب وأهميته، فالمفسِّر يُبيِّن السياق الذي ورد فيه الاسم الجليل، ويبرز دوره البلاغي في السياق القرآني، أو ما يسمّى بالنظم البياني، فيبحث أسرار التقديم والتأخير، أو التعريف والتنكير، ويضيء وجه الحكمة في ذلك، كما يلتفت إلى وجه اقتران كل اسمين معاً في اختصاص دون آخر، إضافةً إلى الاهتمام بالناحية الإعرابية فيه.

ويصنّف علماء آخرون في رحاب أسماء الله، فيبيّنون ما تتضمّنه من المعاني الجمالية والقيم الخلقية، مؤكّدين عظمة الخالق من خلال دلالة هذه الأسماء.

ويجتهد آخرون في الاستدلال بأسماء الله وصفاته وأفعاله على

توحيده، وترسيخ مبادىء العقيدة من خلالها.

وقد أجاد بعضُ العلماء في بيان هذه الأسماء من خلال المنظومات الشعرية، فبرزت أسماء الله تعالى من خلال نظم شعريٍّ بارع.

وعكف شُرَّاحُ الحديثِ النبوي كالإمام النووي، والعيني، وابن حجر، والقسطلاني، والسيوطي، وغيرهم على بيان معاني هذه الأسماء الجليلة، فصار الحديثُ عنها معلماً بارزاً، وفنّاً قائماً بذاته.

وأولى علماء التوحيد وأهل التصوف هذا الموضوع عنايةً فائقةً، فسمتْ نفوسُهم من أجل البحث والتفتيش عن صفات الربوبية، ومعاني الجلالة والعظمة، فهو مطلب عزيز المرام:

كالبدر من حيث التفتّ رأيته ... يهدي إلى عينيك نوراً ثاقبا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

فالأسماء الحسنى يُنال بها لكل مطلوب، ويتوسّل بها إلى كلِّ مرغوب، وبملازمتها تظهر الثمرات، وصرائح الكشف، والاطلاع على أسرار المغيبات، وأما إفادة الدنيا فالقبول عند أهلها، والهيبة، والتعظيم، والبركات في الأرزاق، والرجوع إلى كلمته، وامتثال الأمر منه.. وهذا سرٌّ عظيمٌ من العلوم لا يُنكر شرعاً ولا عقلاً.

قال صاحب «مفتاح السعادة»:

«اعلم أن النفس بسبب انشغالها بأسماء الله سبحانه وتعالى تتوجَّه إلى جناب القدس، وتتخلى عن الأمور الشاغلة لها عنه، فبوساطة ذلك التوجّه تفيضُ عليها آثار وأنوار تناسب استعدادها الحاصل لها بسبب الاشتغال، ومن

هذا القبيل الاستعانة بخواصّ الأدعية، بحيث يعتقد الرائي أن ذلك يفعل السحر»[1].

ومن هنا ليس أمامنا إلا عمل الطاعات، وفعل الخيرات، ومناجاة الحق بأسمائه؛ لأن الإنسان مظهرٌ للأسماء والصفات، مرآةٌ لها، كما أنه صورةٌ جامعة من الأسرار الإلٰهية والمعاني الرحمانية، فالله سبحانه يتجلى بأسمائه على عباده، فترى آثارها في صورهم، وألوانهم، وأحوالهم، وأمزجتهم، وتطوراتهم.

كما أنَّ للأسماء تجلّياتٍ شتى، وأسراراً لا تتناهى، وإن تناهت الأيام والأعمار: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وعظمة الأسماء أكبر من أن يكشف عنها نقاب، أو يصل إلى حقيقتها وعظمتها أولو الألباب: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩].

والسعيد من وفَّقه الله، فاشتغل بطاعة مولاه، غير معتمد على عمله وتقواه، ومن أراد الارتقاء فليعلم أن صفات الله لا تدرك إلاّ بعد معرفة تأثيرها في الموجودات، وبقدر مراتب العلم تكون درجاتُ المعرفة.

وقد سهَّل الله سبحانه لنا طريق الدعاء بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: سبحوه، واذكروه، واعبدوه بها؛ كي نرقى في ذلك إلى أسمى غاية، ونشرب من رحيق المعرفة الكفاية.

والرسول الكريم يقول: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» ومعنى أحصاها: حفظها، ووعاها، ودعا بها، وكرَّر تلاوتها عالماً

---

(١) كشف الظنون (١/ ٧٢٥).

بمعناها، والله سبحانه سمَّى نفسه بما سماها، وجميع الأسماء إلى ربك منتهاها، قال ابن العربي:

«فمن حصَّل هذه المعاني في أسماء الله نال الحسن من كل طريق، وحصل له القطع بالتوفيق»[1].

وقد تسابق أهلُ العلم للتأليف في هذا الموضوع الجليل، فبيّنوا معانيها، وأظهروا للناس دواعي معرفتها ومقاصدها، ولا شك أن معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته هي غاية الغايات، وأشرفها قدراً، وهي السبيل إلى دخول الجنة لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحصاها دخل الجنة».

قال أبو بكر ابن العربي حول السبيل إلى معرفة هذه الأسماء:

«حلَّق العلماء عليها، وساروا إليها، فمن جائرٍ وقاصدٍ؛ والقاصد في الأكثر واقف دون المرام، والجائر ليس فيه كلام... والذي أدلكم عليه أن تطلبوها في القرآن والسنة، فإنها مخبوءة فيهما، كما خبئت ساعة الجمعة في اليوم، وليلة القدر في الشهر رغبةً، والكبائر في الذنوب رهبةً؛ لتعمّ العباداتُ اليوم بجميعه، والشهر بكليته، وليقع الاجتناب لجميع الذنوب، وكذلك أخفيت هذه الأسماء المتعددة في جملة الأسماء الكلية، لندعُوه بجميعها، فنصيب العدد الموعود به فيها»[2].

أما ذكرها في القرآن فقد وردت في ثلاثٍ وثلاثين سورة، منها من ضمّ اسماً واحداً كسورة التوبة، والكهف، ومريم، والحج، والنمل، وغيرها.. ومنها ما جمع اسمين من أسمائه الحسنى، كما ورد في سورة الأنفال، والرعد، وفاطر... ومنها ما نظم مجموعة من أسمائه الحسنى

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٨٠٤).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٨٠٥).

كما نجده في سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والحشر، وغيرها..

وإليك بيان مواطن أسماء الله تعالى الحسنى التي وردت مفصلةً في القرآن الكريم:

الفاتحة:

فيها خمسة أسماء: الله (١)، الرب (١)، الرحمن الرحيم (٢)، المالك (٣).

في سورة **البقرة**: المحيط (١٩)، القدير (٢٠)، العليم (٣٢)، الحكيم (٣٣)، التواب (٣٧)، البارىء (٥٤)، البصير (٩٦)، الواسع (١١٥)، السميع (١٢٧)، العزيز (١٢٩)، الرؤوف (١٤٣)، الشاكر (١٥٨)، الإله (١٦٣) الواحد (١٦٢)، الغفور (١٧٣)، القريب (١٨٦) الحكيم (٢٢٥)، الحي (٢٥٥)، القيوم (٢٥٥)، العلي (٢٥٥)، العظيم (٢٥٥)، الغني (٢٦٣)، الولي (٢٥٧)، الحميد (٢٦٧)، الخبير (٢٣٤)، البديع (١١٧).

وفي سورة **آل عمران**: الوهاب (٨)، الناصر (١٥٠)، الجامع (٩).

وفي سورة **النساء**: الرقيب (١)، الحسيب (٦)، الشهيد (٣٣)، الكبير (٣٤)، النصير (٤٥)، الوكيل (٨١)، المقيت (٨٥)، العفو (٤٣).

وفي سورة **الأنعام**: القاهر (١٨)، اللطيف (١٠٣)، الحاسب (٦٢)، القادر (٦٥)، الحكيم (٧٣).

الأعراف الفاتح (٨٩).

الأنفال القوي (٥٢)، المولى (٤٠).

التوبة العالم (٩).

هود الحفيظ (٥٧)، المجيب (٦١)، المجيد (٧٣)، الودود (٩٠).

يوسف المستعان (١٨)، القهار (٣٩)، الغالب (٢١).

الرعد	المتعالي (٩)، الوالي (١١).
الحجر	الحافظ (٩)، الوارث (٢٣)، الخلاق (٨٦).
الكهف	المقتدر (٤٥).
مريم	الحفي (٤٧).
طه	الغفار (٨٢)، الملك (١١٤)، الحق (١١٤).
الحج	الهادي (٥٤).
النور	المبين (٢٥)، النور (٣٥).
النمل	الكريم (٤٠).
الروم	المحيي (٥٠).
سبأ	الفتاح (٢٦).
فاطر	فاطر (١)، الشكور (٣٠).
الزمر	الكافي (٣٦).
غافر	الخالق (٦٢).
الدخان	المنتقم (١٦).
الذاريات	الرزاق (٥٨)، المتين (٥٨).
الطور	البرّ (٢٨).
القمر	المليك (٥٥).
الرحمن	ذو الجلال والإكرام (٢٧).
الحديد	الأول، الآخر، الظاهر، الباطن (٣).
الحشر	القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، الجبار، المتكبر، المصور (٢٣).
الأعلى	الأعلى (١).
العلق	الأكرم (٣).

الإخلاص   الأحد (١)، الصمد (٢).

***

الكتب المؤلفة في معاني أسماء الله تعالى:

تختلف مناهج التأليف في بيان معاني أسماء الله الحسنى وفق اختلاف مذاهب المؤلفين، وتنوّع اختصاصهم، من المفسرين، وعلماء الحديث، وعلماء التوحيد والتصوف، ومن علماء العربية وفقه اللغة، ففي كل علم من هذه العلوم كتب مفردة لهذا الحديث العظيم حول أسماء الله تعالى، وهي ثروة غنية تحتاج إلى رصد وتدوين.

ابن القيم وجهوده
في مجال دراسة أسماء الله الحسنى

سعى ابن القيم ـ كغيره من جهابذة العلماء ـ للإدلاء بدلوه في مجال الحديث عن أسماء الله الحسنى، وتوضيح معانيها؛ من أجل تعميق الإيمان، وتثبيت العقيدة الصحيحة، وغرس القيم الإسلامية السامية في الفرد والمجتمع، واجتهد في بيان سبل تمثّلها، والعمل بمقتضاها في حقوق الله وحقوق العباد، وفهم دلالاتها والعمل بها، وترسيخ مبادئها في العقول، وفي النفوس، وفي القلوب.

وقد أكّد ابن القيم أن العلم بأسماء الله وإحصاءها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم؛ إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها[١].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٣).

وهو يقرر مذهب السلف في إثبات كل ما جاء في القرآن والسنّة من صفات، وأسماء، وأخبار، وأحوال على ما يليق بالرب سبحانه[1]، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر، والحكم، والغايات المحمودة بفعله وأمره، وقد ردّ على الجهمية والمعتزلة والقدرية إنكارهم للصفات، وحقائق الأسماء الحسنى.

ومضمون الكتاب يتحدث عن معرفة أسماء الله وصفاته، فيوضح شواهد الصفات من الكتاب والسنة، ويرشدنا إلى أن **الإيمان بصفات الرب عز وجل أساس الإسلام**، كما يفرد فصلاً للحديث عن أصول الأسماء الحسنى، وفيه أن **كمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمعرفة فاطره، وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته**. ويردف هذا ببحث يتناول مشهد الأسماء والصفات، يركز فيه على أن معرفة تعلُّق الوجود خلقاً وأمراً مرتبطة بالأسماء الحسنى، والصفات العلى.

وفي مجال العقيدة يتوسع في بيان مقتضيات الأسماء الحسنى لمسمّياتها ومتعلقاتها، ويتناول أيضاً كيفية الثناء على الله بأسمائه ومواردها في القرآن وفي السنّة، ومباحث أخرى تتصل بالدعاء، والتوسل بأسمائه الحسنى.

وعقد فصلاً بيّن فيه تنزيه الأسماء الحسنى عن الشر، وأكّد الالتزام بالأدب في إطلاق هذه الأسماء كما حددها القرآن والسنّة الشريفة.

وكان في اعتماده أحاديث الأسماء والصفات يتحرّى لما يرد منها إذا صحّت من طريق النقل والسند تأويلاً لا يخرج على معاني أصول الدين

---

(١) المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة (ص ٣٨).

ومذاهب العلماء، ولا يبطل الرواية فيها أصلاً، إذا كانت طرقها مرضية ونقلتها عدولاً.

وهو في هذا التأليف يعرض لُباب أقوال العلماء، والمفسرين، والمحدثين، وحذاق أهل اللغة في بيان دلالة الأسماء الحسنى من حيث معانيها، ولغتها، وأبنيتها، واشتقاقها، وبلاغتها.

ويستطرد في الحديث عن مسائل لغوية كانت مدار حديث علماء العربية، كالقول في معنى (اللهم) وبيان خلاف العلماء في أصلها، وكذلك موارد صفته (تبارك) في القرآن والمعاني التي تدل عليها من خلال معاجم اللغة، وكتب معاني القرآن، والتفسير، والخلاف بين معنى الاسم والمسمى مما هو مدون في كتب اللغة والمعاجم.

ولم تخل نظرة ابن القيم في هذا الموضوع عن نظم هذه الأسماء شعراً ضمّنه كتاب «الكافية في بيان عقيدة أهل السنة» وغيرها من الطرائف اللغوية والتفسيرية، والنكت البلاغية، واللمحات المشرقة، مما يعزّ وجودها في غيره من المؤلفات.

وأخيراً؛ فالقارىء يرى أن الكتاب فيه فقه، وتشريع، وتفسير، وشرح حديث، وكلام عن العقائد، وتوحيد إسلامي حق، وهو كتاب تهذيب وأخلاق، فوق ما به من استطرادات لغوية وأدبية نافعة، يُروى فيها بعض المأثور من الشعر أو النثر.

* * *

منهج ابن القيم في هذا الكتاب

بيّن ابن القيم في هذه الفصول النفيسة ـ التي أمتع بها كلّ قارىء ـ أنَّ الحقَّ ـ الذي هو غاية خلق السموات والأرض ـ هو أيضاً غاية، تريد من العباد أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، فيكون تجلّي الأسماء الحسنى في كلّ باب وفي كل فصل باعثاً على التوحيد الخالص للّه، وعلى العبودية المطلقة من العباد.

فمدار الآيات القرآنية حول خلق العالم: معرفة العباد كمال قدرته، وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته، ومعرفة أسمائه وصفاته، وتوحيده.

وسِرُّ هذه الأبحاث التي أبدعها ابن القيّم أنها ربطت بين معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وبيّن طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات، وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد، والمعاد، والنبوّات. . . وكذلك في الاستدلال بالخلق على الخالق، وما أخبرت به الرسل الكرام عنه سبحانه من أسمائه، وصفاته، وتوحيده، ولقائه، ووجود ملائكته.

وهذا ـ بلا شك ـ باب عظيم من أبواب الإيمان، إنما يفتحه الله على مَن سبقت له منه سابقة السعادة.

والحديث عن أسماء الله الحسنى وصفاته أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

والكتاب بعد هذا، صورة ورسالة، يقوم على منهج وغاية، في دقة

وأمانة، وبراعة علمية، وكفاءة فنية، يزيّنه ويجلّيه: أسلوب عبقري، فيه إشراق، ومرونة، لا يعرف الحشو ولا التطرف، ولا البهرج المتكلف، بل يقصد إلى غايته، بأرشق الكلمات وأحلاها وأعلاها، وإن تميز بالاستطراد أو التطويل لكنه ضمن الهدف والمنهج الذي ابتغاه المؤلف ابن القيم رحمه الله، بأسلوبه، وشخصيته، وعلمه، واستنباطه، واجتهاده. فهو يُسخِّر كل ملكاته ليقدم لنا في هذا الكتاب ــ وفي كتبه كلها ــ المعرفة الصحيحة لدين الإسلام، في صورة متكاملة من حديث عن محاسن الشريعة، وأصول العقيدة، ومبادىء العبادة وأسرارها، وهدي المصطفى ﷺ، وهو منهج في التأليف قلّ نظيره في العلماء قديماً وحديثاً.

* * *

مضمون الكتاب

كانت الأفكار المبثوثة في هذا الكتاب تتوزَّعُ على ثلاثة أبواب، هي:

١ ـ معرفة أسماء الله الحسنى.

٢ ـ تقسيم أسماء الله الحسنى.

٣ ـ دلالة أسماء الله الحسنى.

ويمكن أن نعرض لمضمون الكتاب وفق النقاط التالية:

● تحدَّث الكتاب عن أسماء الله جل ثناؤه، وصفاته التي دلَّ كتابُ الله على إثباتها، أو دلَّت عليها سُنَّةُ رسول الله ﷺ، أو دلَّ عليها إجماعُ سلف هذه الأمة.

● كلّ صفةٍ جاء بها الكتابُ، أو صحَّت بأخبار التواتر، أو رُويتْ من طريق الآحاد وكان لها أصلٌ في الكتاب، فإنَّا نقولُ بموجبها، ونجريها على ظاهرها دون تكييف.

● التنبيه على إطلاق ما لا يجوزُ على الله سُبحانه، وما لا يليق بصفاته.

● بيان حقيقة الأسماء الحسنى من المعاني اللغوية الواسعة؛ من صرفٍ، واشتقاق، وفقه لغة. . .

● نفي التشبيه عن الله تعالى جدُّه.

● يذكر ابنُ القيِّم ما فهمه الصحابةُ والتابعون من معاني أسمائه تعالى، وصفاته، وما اعتقدوه ممَّا يليقُ بجلاله.

- التنبيه على أنَّ ما يُسند إلى الله تعالى من صفاتٍ ليس معناها من الله كمعناها من العباد، وأنَّ ما يتعارفه الناسُ من نعوت بني آدم غيرُ جائزٍ على الله عزَّ وجلَّ.
- ذكر أسماء الله الواردة في سائر أحاديث رسول الله ﷺ نصّاً، أو دلالةً.
- أسماء الله الحسنى من الضَّوابط التي يلزم الإنسان معرفتها، والاعتراف بها.
- لا ينبغي أن يُدعى ربنا جلَّ جلالُه باسم المُذِلّ حتى يُقال معه المعزّ، وكذلك لا ينبغي أن يُدعى باسم القابض حتى يقال معه الباسط، ولا يُدعى بالضار حتى يُقال معه النافع.
- يذكر سُبحانه عِلْمَه عند شهادته، وقدرتَه عند مجازاته، وحكمتَه عند خَلْقه وأمره، ورحمتَه عند ذِكْر إرسال رُسُله، وحلمَه عند ذِكْر ذنوب عباده ومعاصيهم، وسَمْعَه عند دعائه، ومسألتَه وعزَّتَه وعِلْمَه عند قضائه وقدرته.

* * *

أصل هذا الكتاب

وفقنا الله ويسَّر لنا ــ وكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له ــ أن نخرج أمّات كتب الإمام ابن القيّم[1]، وأن ندرس مذهبه وآراءه النحوية[2]، وأن نبيّن إسهاماته العديدة في علوم الشريعة، فكان لزاماً علينا أن ننقّب عن حديث ابن القيم في كتبه المطبوعة كلها، وأن نستخرج منها كلّ ما يتعلق بهذا الموضوع الجليل المفيد: شرح الأسماء الحسنى، ذلك أن أغلب المترجمين لابن القيم كابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» وابن العماد في «شذرات الذهب» والداوُدي في «طبقات المفسرين» ذكروا هذا الكتاب لابن القيم ضمن تراجمهم.

ولمّا لم نعثر على أصل مخطوط لهذا الكتاب، ولم نجد له أثراً، حاولنا جمع كل ما يتعلق بهذا الموضوع من كتبه المطبوعة؛ لعله يفي إن شاء الله بأمنية ابن القيم نفسه.

فابن القيّم ــ رحمه الله ــ قد عني عناية تامة بهذا الحديث، وأهميته في علم التوحيد ــ أعلى علوم الشريعة الإسلامية ــ وكانت أمنيته أن يخرج

---

(١) حقّق يوسف بديوي بعضاً من كتب ابن القيم، وهي: الداء والدواء، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والروح، وطريق الهجرتين، والوابل الصيب. كما صدر له كتاب: يوم الجمعة، وفيه نصوص مختارة لابن القيم من كتابه «زاد المعاد».

(٢) انظر كتاب: «ابن قيم الجوزية وآراؤه النحوية» إعداد: أيمن الشوا.

كتاباً جامعاً شاملاً لشرح الأسماء الحسنى؛ إذ قال: «وعسى الله أن يعين بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنى مراعياً فيه أحكام هذه القواعد، بريئاً من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته، فهو المانّ بفضله، والله ذو الفضل العظيم».

* * *

عملنا في هذا الكتاب

انصبَّ عملُنا في هذا الكتاب وفق الخطوات التالية:

١ ــ إحصاء كتب ابن القيِّم المطبوعة.

٢ ــ استخراج ما يتعلَّق بالحديث عن أسماء الله الحسنى منها.

٣ ــ توزيع هذه المادة وفق الأسماء والصفات.

٤ ــ توزيع فقرات النص.

٥ ــ تخريج الآيات من أماكنها من السور القرآنية.

٦ ــ تخريج الأحاديث الواردة من مظانّها الحديثية.

٧ ــ التعليق على بعض المواطن من كُتُب ابن القيِّم وغيره.

٨ ــ كتابة مقدمة مهمَّة تتحدَّث عن التدوين في أسماء الله الحسنى، مع بيان منهج ابن القيِّم في هذا الكتاب، ولعله بهذا التحقيق سيكون من أغنى الكُتُب التي تحدَّثتْ عن أسماء الله الحسنى، فهو موسوعةٌ مفيدةٌ تشمل ما يعنُّ في ذهن القارىء حول هذا الموضوع، وفق عقيدةٍ صحيحةٍ، مبتناها: كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ.

٩ ــ صُنْع فهارس علميّة مفيدة.

وإننا ندعو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا ببركة أسمائه تعالى، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

المحقّقان

يوسف أيمن

دمشق في ١٤/ ٥/ ١٤١٦ هـ

٨/ ١٠/ ١٩٩٥ م

الباب الأول

معرفة أسماء الله الحسنى

الفصل الأول: معرفة أسماء الله وصفاته.

الفصل الثاني: أصول الأسماء الحسنى.

الفصل الثالث: مقتضيات الأسماء الحسنى.

الفصل الرابع: التوسل بأسماء الله الحسنى.

الفصل الخامس: الأدب في مراعاة الأسماء الحسنى.

الفصل السادس: تنزيه الأسماء الحسنى عن الشر.

الفصل السابع: تجلّيات الرب تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

الفصل الثامن: دلالة أسمائه الحسنى على ذاته وتوحيده.

الفصل التاسع: آيات الأحكام وآيات الصفات الحسنى.

الفصل العاشر: لا تأويل في آيات الصفات الحسنى.

الفصل الأول
معرفة أسماء الله وصفاته

إنَّ العلمَ بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه، مراد لذاته، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢] فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض، ونزل الأمر بينهن، ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فالعلم بوحدانيته تعالى، وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفى به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعبد بموجبها ومقتضاها(١).

شواهد الصفات من الكتاب والسنة:

وشواهد الصفات هي التي تشهد بها، وتدل عليها؛ من الكتاب والسنة، وشهادة العقل والفطرة وآثار الصنعة. فإذا تمكّن العبد في التوحيد علم أن الحق سبحانه هو الذي علّمه صفات نفسه بنفسه، لم يعرفها العبد من ذاته، ولا بغير تعريف الحق له، بما أجراه على قلبه من معرفة تلك الشواهد، والانتقال منها إلى المشهود المدلول عليه. فهو سبحانه الذي

---

(١) مفتاح السعادة (٢/ ٢٠٧).

شهد لنفسه في الحقيقة؛ إذ تلك الشواهد مصدرها منه. فشهد لنفسه بنفسه؛ بما قاله وفعله وجعله شاهداً لمعرفته، فهو الأول والآخر، والعبد آلة محضة، ومنفعل ومحلٌّ لجريان الشواهد، وآثارها وأحكامها عليه ليس له من الأمر شيء. فهذا معنى إرسال الصفات على الشواهد، فإذا أرسلها عليها تبين له أن الحكم للصفات دون الشواهد، بل الشواهد هي آثار الصفات، فهذا وجه.

ووجه ثان أيضاً. وهو: أن الشواهد بوارق وتجليات تبدو للشاهد. فإذا أرسل الصفات على تلك الشواهد توارى حكم تلك البوارق والتجليات في الصفات، وكان الحكم للصفات، فحينئذٍ يترقى العبد إلى شهود الذات شهوداً علمياً عرفانياً[1].

العلم بالله وبأسمائه وصفاته أجلّ العلوم:

إن شرف العلم تابع لشرف معلومه؛ لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه، ولشدة الحاجة إلى معرفته، وعظم النفع بها. ولا ريب أن أجلّ معلوم وأعظمه وأكبره هو الله، الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص، وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله.

ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات. وكما أن العلم به أجلّ العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها، كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين، ومفتقر إليه في

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٦٤).

تحقق ذاته إليه، فالعلم به أصل كل علم، كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده.

ولا ريب أنّ كمال العلم بالسبب التام وكونه سبباً يستلزم العلم بمسببه، كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله، وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه، والمفعول إلى فاعله، فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه، فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه، والعلم به أصل كل علم ومنشؤه، فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩][١].

فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلاً مهملاً، بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه؛ لبقائها على هداها الذي أعطاها إياه خالقها، وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسي ربه فأنساه نفسه وصفاتها، وما تكمل به، وتزكو به، وتسعد به في معاشها ومعادها[٢].

فإذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالأزل والبقاء والفعل، وعَجْزَ مَنْ سواه عن القدرة على إيجاد ذرة أو جزء من ذرة، وأنه لا وجود له من

---

(١) قال الزجاج في تفسير الآية ما نصه: «نسوا الله: تركوا ذكره وما أمرهم به، فترك الله ذكرهم بالرحمة والتوفيق». (معاني القرآن: الزجاج ٥/١٤٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/٨٦).

نفسه، فوجوده ليس له، ولا به، ولا منه. وتوالي هذا العلم عن القلب يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر، كما سقط غناه وربوبيته وملكه وقدرته، فصار الرب سبحانه وحده هو المعبود والمذكور، كما كان وحده هو الخالق المالك، الغني الموجود بنفسه أزلاً وأبداً، وأما ما سواه فوجوده، وتوابع وجوده، عارية ليست له، وكلّما فني العبد عن ذكر غيره وشهوده صفت هذه المعرفة في قلبه[1].

وأعظم الناس حظّاً في معرفة الله معترف بأنه لا يحصي ثناءً عليه سبحانه، وأنه فوق ما يثني عليه المثنون، وفوق ما يحمَده الحامدون، كما قيل:

ومـا بلـغَ المهـدون نحـوكَ مـدحـةً ... وإن أطنبـوا، إنَّ الـذي فيـك أعظـمُ
لك الحمدُ كلُّ الحمد، لا مبدا له ... ولا منتهى، واللَّهُ بالحمد أعلمُ[2]

الإيمان بالصفات العليا أساس الإسلام:

ولا يستقر للعبد قدم في المعرفة ــ بل ولا في الإيمان ــ حتى يؤمن بصفات الربّ جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حدّ الجهل بربّه. فالإيمان بالصفات وتعرّفها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان. فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان.

وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيءَ الظن به، وتوعّده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٦٣).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٥٤).

﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٢ ـ ٢٣].

فأخبر سبحانه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظَّانين به ظن السوء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦].

ولم يجىء مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. وجحدُ صفاته وإنكار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله، كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به، وهو شر من الشرك، فالمعطِّلُ شرٌّ من المشرك؛ فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك، فالمعطلون أعداء الرسل بالذات، بل كل شرك في العالم أصله التعطيل(١).

• • •

الفصل الثاني

أصول الأسماء الحسنى

إن كمال الإنسان وسعادته لا تتم إلاَّ بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام، فإنَّ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ يتضمن الأصل الأول، وهو

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٤٧).

معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم الله والرب والرحمٰن؛ فاسم الله متضمن لصفات الألوهيّة، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمٰن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهدايته.

وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل، فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظّ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظّه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته.

والنعمة والرحمة من لوازم الربوبية، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات إلٰهيته. فهو الإلٰه الحق وإن جحد الجاحدون وعدل عنه المشركون، فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز

من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان[1].

اتفاق جميع النبوات على أصول العقيدة:

اتفقت جميع النبوات على التوحيد؛ الذي يقوم على أصول:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه، ولا ندّ، ولا ضد، ولا وزير، ولا مشير، ولا ظهير، ولا شافع إلا من بعد إذنه.

الثاني: أنه لا والد له، ولا ولد، ولا كفؤ، ولا نسيب بوجه من الوجوه، ولا زوجة.

الثالث: أنه غني بذاته، فلا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه.

الرابع: أنه لا يتغير، ولا تعرض له الآفات؛ من الهرم، والمرض، والسِّنَة، والنوم، والنسيان، والندم، والخوف، والهم، والحزن ونحو ذلك.

الخامس: أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته، بل ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

السادس: أنه لا يحلّ في شيء من مخلوقاته، ولا يحل في ذاته شيء منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.

السابع: أنه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وفوق كل شيء، وعالٍ على كل شيء، وليس فوقه شيء ألبتة.

---

(١) الفوائد (١٩ ـ ٢٠).

الثامن: أنه قادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء يريده، بل هو الفعّال لما يريد.

التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته.

العاشر: أنه سميع بصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنّن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، فقد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته في جميع البريّات، وعمّت رحمته جميع المخلوقات، ووسع كرسيه الأرض والسموات.

الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى مَن يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه عليها، أو يستعطفه عليهم، ويسترحمه لهم.

الثاني عشر: أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل، ولا يتلاشى، ولا يعدم، ولا يموت.

الثالث عشر: أنه المتكلم، الآمر الناهي، قائل الحق، وهادي السبيل، ومرسل الرسل، ومنزل الكتب، والقائم على كل نفسٍ بما كسبت من الخير والشر، ومجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

الرابع عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدقَ منه قيلاً، ولا أصدقَ منه حديثاً، وهو لا يخلف الميعاد.

الخامس عشر: أنه تعالى صَمَد بجميع الصمدية، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته.

السادس عشر: أنه قدّوس سلام، فهو المبرَّأ من كل عيبٍ وآفةٍ ونقصٍ.

السابع عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

الثامن عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عباده منه ظلماً.

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه، ولا يخبر نبي بخلافه أصلاً[1].

مشهد الأسماء والصفات:

والمطّلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها، وإن كان العالم ــ بما فيه ــ من بعض آثارها ومقتضياتها.

وهذا من أجلّ المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة، فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال، وكل صفة لها مقتض وفعل: إما لازم، وإما متعد، ولذلك الفعل تعلُّق بمفعول هو من لوازمه، وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. كلّ ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيلُ تعطيل مفعوله عن أفعاله، وأفعاله عن

---

(١) هداية الحيارى (٢١٦ ــ ٢١٧).

صفاته، وصفاته عن أسمائه، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسماؤه حسنى؛ ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقّه، ولهذا ينكر سبحانه على من عطّله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به وإلى ما يتنزه عنه، وأن ذلك حكم سيء ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حقّ قدره، ولا عظّمه حقّ تعظيمه، كما قال تعالى في حقّ منكري النبوة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال في حق من جوّز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] فأخبر أن هذا حكم سيىء لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته.

وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦] عن هذا الظن والحسبان؛ الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته؛ إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد، المجيد» يمنع ترك الإنسان سُدَى مهملاً معطلاً، لا يُؤمَر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك.

وكذلك اسمه «الملك»، واسمه «الحيّ» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل، بل حقيقة «الحياة» الفعل، فكل حي فعّال. وكونه سبحانه «خالقاً قيوماً» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً. واسمه «الخالق» يقتضي مخلوقاً، وكذلك «الرزّاق». واسمه «الملك» يقتضي مملكة وتصرّفاً وتدبيراً، وإعطاءً ومنعاً، وإحساناً وعدلاً، وثواباً وعقاباً. واسم «البَرّ، المحسن، المعطي، المنّان» ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا، فمن أسمائه سبحانه «الغفّار، التوّاب، العفوّ» فلا بد لهذه الأسماء من متعلَّقات، ولا بدّ من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يُعفى عنها. ولا بد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه؛ إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم «الخالق، الرازق، المعطي، المانع» للمخلوق والمرزوق والمعطَى والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والربُّ تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عَفُوٌّ يحبّ العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه من موجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمدُ به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه ما هو من موجبات كماله، ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلاّت، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات، مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها، فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد

قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك، قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وغاياتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله في كل ما قضاه وقدّره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبُّدهم له بأسمائه الحسنى؛ إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً.

وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطَّلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفوّ والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد، والبر، واللطف، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو

سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته؛ فهو «عليم» يحبّ كل عليم، «جَوَادٌ» يُحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال، «عفو» يحب العفو وأهله، «حَيِي» يحب الحياء وأهله، «بَرٌّ» يحب الأبرار، «شكور» يحب الشاكرين، «صبور» يحب الصابرين، «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح خَلَقَ من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه، وقدّر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له؛ ليترتب عليه المحبوب له المرضي له، فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب:

فربما كان مكروه العباد إلى محبوبها سبَبٌ ما مثله سبب

والأسباب ــ مع مسبباتها ــ أربعة أنواع: محبوب يفضي إلى محبوب، ومكروه يفضي إلى محبوب، وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة إلى ما يحبه وما يكرهه.

والثالث: مكروه يفضي إلى مكروه. والرابع: محبوب يفضي إلى مكروه. وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه؛ إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره ــ الذي ما خلق ما خلق، ولا قضى ما قضى إلا لأجل حصولها ــ لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له. والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلى محبوب له ومكروه له.

فالطاعات والتوحيد أسباب محبوبة له، موصلة إلى الإحسان، والثواب المحبوب له أيضاً. والشرك والمعاصي أسباب مسخوطة له، موصلة إلى العدل المحبوب له، وإن كان الفضل أحب إليه من العدل؛ فاجتماع العدل والفضل أحبّ إليه من انفراد أحدهما عن الآخر، لما فيهما من كمال الملك

والحمد، وتنوّع الثناء، وكمال القدرة.

فإن قيل: كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه؟

قيل: هذا سؤال باطل، لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. والذي يقدَّر في الذهن وجوده شيء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب، وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم، بل قد يكون مبغوضاً للرب تعالى لمنافاته حكمته، فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له، كان نسبة له إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه.

فليعطِ اللبيب هذا الموضع حقَّه من التأمل؛ فإنه مزلَّة أقدام، ومضلة أفهام. ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقلّ الخلاف.

وهذا المشهد أجلّ من أن يحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة تطلع على ما وراءها، والله الموفق والمعين[1].

● ● ●

الفصل الثالث

مقتضيات الأسماء الحسنى

إن كلّ آية في القرآن متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإنّ القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوته إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته[2].

فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٥٠).

والأمر، اقتضاءَها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكلّ صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطَّرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضرر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً.

ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يُرضي الله، وأن يجعل تعلُّق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزّه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها. وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها؛ لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم.

وتأمل قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي

فتنفعوني»[1] ذكر هذا عقب قوله: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم».

فتضمن ذلك أن ما يفعله تعالى بهم في غفران زلاتهم وإجابة دعواتهم وتفريج كرباتهم ليس لجلب منفعة منهم، ولا لدفع مضرة يتوقعها منهم، كما هو عادة المخلوق الذي ينفع غيره ليكافئه بنفع مثله، أو ليدفع عنه ضرراً، فالرب تعالى لم يحسن إلى عباده ليكافئوه، ولا ليدفعوا عنه ضرراً، فقال: «لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني» إني لست إذا هديت مستهديكم، وأطعمت مستطعمكم، وكسوت مستكسيكم، وأرويت مستسقيكم، وكفيت مستكفيكم، وغفرت لمستغفركم؛ بالذي أطلب منكم أن تنفعوني، أو تدفعوا عني ضرراً، فإنكم لن تبلغوا ذلك وأنا الغني الحميد، كيف والخلق عاجزون عمّا يقدرون عليه من الأفعال إلا بأقداره وتيسيره وخلقه، فكيف بما لا يقدرون عليه؟ فكيف يبلغون نفع الغني الصمد الذي يمتنع في حقه أن يستجلب من غيره نفعاً، أو يستدفع منه ضرراً، بل ذلك مستحيل في حقه؟!

ثم ذكر بعد هذا قوله: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

فبيّن سبحانه أن ما أمرهم به من الطاعات، وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن استجلاب نفعهم، ولا استدفاع ضررهم، كأمر السيد عبده، والوالد ولدَه، والإمام رعيَّته؛ بما ينفع الآمر والمأمور، ونهيهم عما يضر الناهي والمنهى، فبيّن تعالى أنه المنزَّه عن لحوق نفعهم وضرهم به في إحسانه إليهم بما يفعله بهم وبما يأمرهم به.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم.

ولهذا لما ذكر الأصلين بعد هذا، وأن تقواهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه شيئاً، ولا ينقصه، وأن نسبة ما يسألونه كلهم إياه فيعطيهم إلى ما عنده كلا نسبة، فتضمن ذلك أنه لم يأمرهم ولم يحسن إليهم بإجابة الدعوات وغفران الزلات وتفريج الكربات؛ لاستجلاب منفعة ولا لاستدفاع مضرة، وأنهم لو أطاعوه كلهم لم يزيدوا في ملكه شيئاً، ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئاً، وأنه الغني الحميد، ومن كان هكذا فإنه لا يتزين بطاعة عباده ولا تشينه معاصيهم، ولكن له من الحِكَمِ البوالغ في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم ما يقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته. ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التي لا تحصى بحسب قواهم وطاقتهم، لا بحسب ما ينبغي له، فإنه أعظم وأجلّ من أن يقدر خلقه عليه، ولكنه سبحانه يرضى من عباده بما تسمح به طبائعهم وقواهم، فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم، ولا أنفع للعبد منه.

فهذان مسلكان في حسن التكليف والأمر والنهي:

أحدهما: يتعلق بذاته وصفاته، وأنه أهل لذلك، وأن جماله تعالى وكماله وأسماءه وصفاته تقتضي من عباده غاية الحب والذل والطاعة له.

والثاني: متعلق بإحسانه وإنعامه، ولا سيما مع غناه عن عباده وأنه إنما يحسن إليهم رحمةً منه وجوداً وكرماً، لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة(١).

وإذا اعتبرت اسمه (الحي) وجدته مقتضياً لصفات كماله من علمه، وسمعه وبصره، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وفعله ما يشاء. واسمه

---

(١) مفتاح السعادة (٢/ ١٩٧).

(القيوم) مقتضٍ لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه، وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم، وإن أقرّ بذلك ألحد في أسمائه، وعطّل حقائقها، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق[١].

والتوكُّل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى؛ فإن له تعلّقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات، فله تعلّق باسم «الغفّار، والتوّاب، والعفو، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتّاح، والوهّاب، والرزّاق، والمعطي، والمحسن». وتعلق باسم «المُعِزّ، المُذِلّ، الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكّله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة، والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسّره من فسّره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصحُّ له مقام التوكل، وكلما كان بالله أعرف، كان توكله عليه أقوى[٢].

والمراقبة هي التعبد باسمه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير»، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبَّد بمقتضاها حصلت له المراقبة. والله أعلم[٣].

ويوجب هذا المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها؛ فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها، داع بها. قال الله تعالى:

---

(١) التبيان (ص ١٠٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٦).

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى؛ التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي.

اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمّياتها ومتعلقاتها:

فالله حكيم كريم، جواد ماجد، محسن ودود، صبور شكور، يُطاع فيشكر، ويُعصى فيغفر، لا أحد أَصبر على أَذى سمعه منه، ولا أحد أَحبّ إليه المدح منه، ولا أحد أَحبّ إليه العذر منه، ولا أحد أَحبّ إليه الإحسان منه. فهو محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، جميل يحب الجمال، طيب يحب كلّ طيب، نظيف يحب النظافة، عليم يحب العلماءَ من عباده، كريم يحب الكرماءَ، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، بر يحب الأبرار، عدل يحبّ أهل العدل، حييّ سِتّير يحبّ أهل الحياءِ والستر، غفور عفو يحبّ من يعفو عن عباده ويغفر لهم، صادق يحب الصادقين، رفيق يحبّ الرفق، جواد يحبّ الجود وأهله، رحيم يحبّ الرحماءَ، وتر يحبّ الوتر، ويحبّ أسماءَه وصفاته، ويحبّ المتعبدين له بها، ويحبّ من يسأَله ويدعوه بها، ويحبّ من يعرفها ويعقلها وأثنى عليه بها ويحمده ويمدحه بها، كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «لا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ أَثْنَىٰ عَلَى نَفْسِهِ، وَلا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ الله مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»(١).

وفي حديث آخر صحيح: «لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذىٰ سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ،

(١) رواه البخاري (٧٤٠٣) في التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، ومسلم (٢٧٦٠) في التوبة، باب: غيرة الله تعالى.

يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَداً وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»[1].

ولمحبته لأسمائه وصفاته أمر عباده بموجبها ومقتضاها، فأمرهم بالعدل والإحسان والبر والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت، ولما كان سبحانه يحبّ أسماءَهُ وصفاته كان أَحب الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبها، وأبغضهم إليه من اتصف بالصفات التي يكرهها.

ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى واستقراء آثارها في الخلق والأمر، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل انتظام، ورأى سريان آثارها فيهما وعلم ــ بحسب معرفته ــ ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله، وما لا يليق، فاستدل بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله، فإنه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته، وكذلك يعلم ما يليق به أن يأمر به ويشرعه مما لا يليق به، فيعلم أَنه لا يأمر بخلاف موجب حمده وحكمته. فإذا رأى في بعض الأحكام جوراً وظلماً أو سفهاً وعبثاً ومفسدة أو ما لا يوجب حمداً وثناءً علم أنه ليس من أحكامه ولا دينه، وأنه بريء منه ورسولُه، فإنه إنما أمر بالعدل لا بالظلم، وبالمصلحة لا بالمفسدة، وبالحكمة لا بالعبث والسفه، وإنما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإنه أرحم الراحمين، ورسوله رحمة مهداة إلى العالمين، ودينه كله رحمة، وهو نبي الرحمة وأُمته الأمة المرحومة،

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٩) في الأدب، باب: الصبر في الأذى، ومسلم (٢٨٠٤) في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل.

«على أذى»: المراد بالأذى أذى رسله سبحانه وصالحي عباده؛ لاستحالة تعلّق أذى المخلوقين به، لكونه صفة نقص؛ وهو منزّه عن النقص. انظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦٠ ــ ٣٦١).

وذلك كله موجب أَسمائه الحسنى وصفاته العليا وأَفعاله الحميدة، فلا يخبر عنه إلا بحمده ولا يثنى عليه إلا بأحسن الثناءِ كما لا يسمى إلا بأحسن الأسماءِ[1].

أسلوب الثناء على الله بأسمائه الحسنى:

إن الثناء على الله عامّة ما يجيء مضافاً إلى أسمائه الحسنى الظاهرة دون الضمير، إلا أن يتقدم ذكر الاسم الظاهر فيجيء بعده المضمر، وهذا نحو قول المصلي: ﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمٰن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد﴾ وقوله في الركوع: «سبحانَ ربي العظيم»، وفي السجود: «سبحان ربي الأعلى»، وفي هذا من السر أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنى هو لما تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال، فأتى بالاسم الظاهر الدال على المعنى الذي يثني به ولأجله عليه تعالى، ولفظ الضمير لا إشعار له بذلك، ولهذا إذا كان ولا بد من الثناء عليه بخطاب المواجهة أتى بالاسم الظاهر مقروناً بميم الجمع الدالة على جمع الأسماء والصفات، نحو قوله في رفع رأسه من الركوع «اللهم ربنا لك الحمد»، وربما اقتصر على ذكر الرب تعالى لدلالة لفظه على هذا المعنى، فتأمله فإنه لطيف المنزع جداً.

وتأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة: اللهم، كما في سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك»[2] الحديث.

---

(١) طريق الهجرتين (ص ١٦٨ ــ ١٦٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٦) في الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، والترمذي (٣٣٩٣) في الدعوات، باب: (١٥)، والنسائي (٨/ ٢٧٩).

وجاء الدعاء المجرد مصدراً بلفظ الرب نحو قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وقول موسىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦] وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧].

وكان النبي ﷺ يقول بين السجدتين: «رب اغفر لي، رب اغفر لي»(١). وسرّ ذلك أن الله تعالى يُسأل بربوبيته المتضمنة قدرته وإحسانه وتربيته عبدَه وإصلاح أمره، ويثنى عليه بإلهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنى. وتدبر طريقة القرآن تجدها كما ذكرت لك.

فأما الدعاء فقد ذكرنا منه أمثلة، وهو في القرآن حيث وقع لا يكاد يجيء إلا مُصَدَّراً باسم الرب. وأما الثناء فحيث وقع فمصدَّر بالأسماء الحسنى. وأعظم ما يصدر به اسم الله جل جلاله نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حيث جاء، ونحو: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وجاء ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠]. ونحوه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] حيث وقعت. ونحو: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ

---

(١) رواه أبو داود (٨٧٤) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، وابن ماجه (٨٩٧) في الإقامة، باب: ما يقول بين السجدتين، والنسائي (٢/ ٢٣١)، والحاكم (١/ ٢٧١) لكن دون تكرار «رب اغفر لي»، وصحّحه، ووافقه الذهبي.

﴿ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ونظائره.

وجاء في دعاء المسيح: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤] فذكر الأمرين ولم يجئ في القرآن سواه، ولا رأيت أحداً تعرّض لهذا ولا نبّه عليه. وتحته سرٌّ عجيب دالّ على كمال معرفة المسيح بربه وتعظيمه له، فإن هذا السؤال كان عُقيب سؤال قومه له ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢] فخوَّفهم بالله، وأعلمَهم أنّ هذا مما لا يليق أن يُسأل عنه، وأن الإيمان يردّه، فلما ألحّوا في الطلب، وخاف المسيح أن يداخلهم الشكّ إن لم يجابوا إلى ما سألوا بدأ في السؤال باسم (اللهم) الدّال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصوّره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربه المثني عليه بها.

وإن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة إنما هو أن يثني على الرب بذلك، ويمجده به، ويذكر آلاءه، ويظهر شواهد قدرته وربوبيته، ويكون برهاناً على صدق رسوله، فيحصل بذلك من زيادة الإيمان والثناء على الله أمر يحسن معه الطلب، ويكون كالعذر فيه، فأتى بالاسمين: اسم الله الذي يثنى عليه به، واسم الرب الذي يدعى ويُسأل به؛ لما كان المقام مقام الأمرين.

فتأمل هذا السر العجيب، ولا ينبُ عنه فهمك، فإنه من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء في كتابه، وله الحمد[1].

●●●

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

الفصل الرابع
التوسل بأسماء الله الحسنى

إنّ التوسل إليه سبحانه بأسمائه وصفاته أحب إليه، وأنفع للعبد من التوسل إليه بمخلوقاته، وكذلك سائر الأحاديث، كما في حديث الاسم الأعظم: «اللهم إني أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلاّ أنت، المنّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»[1].

وفي الحديث الآخر: «أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلاّ أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»[2].

وفي الحديث الآخر: «اللهم إني أسألك بعلمك الغيبَ، وقدرتك على الخلق»[3].

وكلها أحاديث صحاح رواها ابن حِبّان والإمام أحمد والحاكم. وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله: «أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري»[4] يجمع أصلين: الحياة والنور، فإن الربيع هو المطر الذي يحيي الأرض فينبت الربيع،

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩٥) في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (٣٥٤٤) في الدعوات، باب: (١٠٠)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه (٣٨٥٨) في الدعاء، باب: اسم الله الأعظم، وأحمد (٣/ ١٢٠، ١٥٨، ٢٤٥، ٢٦٥).

(٢) رواه أبو داود (١٤٩٣) في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (٣٤٧٣) في الدعوات، باب (٦٣)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه (٣٨٥٧) في الدعاء، باب: اسم الله الأعظم، وأحمد (٥/ ٣٤٩ و٣٦٠).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والحاكم (١/ ٥٢٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢١٣).

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩).

فيسأل الله بعبوديته وتوحيده وأسمائه وصفاته أن يجعل كتابه، الذي جعله روحاً للعالمين ونوراً وحياة لقلبه، بمنزلة الماء الذي يحيي به الأرض، ونوراً له بمنزلة الشمس التي تستنير بها الأرض والحياة، والنور جماع الخير كله، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣].

فأخبر أنه روح تحصل به الحياة، ونور تحصل به الحياة، ونور تحصل به الهداية، فأتباعه لهم الحياة والهداية، ومخالفوه لهم الموت والضلال[1].

●●●

الفصل الخامس

الأدب في مراعاة الأسماء الحسنى

اعلم أنه سبحانه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلِّها وأعلاها؛ فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦] وبإرادة اليسر لا العسر كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وبإرادة الإحسان وإتمام النعمة على عباده كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧] فإرادة التوبة لله وإرادة الميل لمبتغي الشهوات. وقوله تعالى: ﴿ مَا

(١) شفاء العليل (ص ٢٧٧).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦].

وكذلك الكلام؛ يصف نفسه منه بأعلى أنواعه، كالصدق والعدل والحق، وكذلك الفعل يصف نفسه منه بأكمله وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة.

وهكذا المحبة وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥] و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولم يصف نفسه بغيرها من العلاقة والميل والصبابة والعشق والغرام ونحوها، فإن مسمّى المحبة أشرف وأكمل من هذه المسمّيات، فجاء في حقه إطلاقه دونها.

وهذه المسمّيات لا تنفك عن لوازم ومعانٍ تنزّه تعالى عن الاتّصاف بها، وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى أكمل معنى ولفظاً مما لم يطلقه؛ فالعليم الخبير أكمل من الفقيه والعارف، والكريم الجواد أكمل من السخي، والخالق البارىء المصوّر أكمل من الصانع الفاعل، ولهذا لم تجىء هذه في أسمائه الحسنى، والرحيم والرؤوف أكمل من الشفيق.

فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته، وحينئذٍ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ، ولا سيما إذا كان مجملاً أو منقسماً إلى ما يمدح به، وغيره فإنه لا يجوز

إطلاقه إلاً مقيَّداً، وهذا كلفظ (الفاعل) و(الصانع)، فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقاً مقيداً أطلقه على نفسه كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٦] ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم.

ولهذا المعنى ــ والله أعلم ــ لم يجيء في الأسماء الحسنى (المريد) كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلِّم ولا الآمر الناهي؛ لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها.

ومن هنا يُعلم غلط بعض المتأخرين وزَلَلِه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً فأدخله في أسمائه الحسنى! فاشتق له اسم الماكر، والخادع، والفاتن، والمضل، والكاتب، ونحوها من قوله: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثاني: أنه سبحانه أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمَّى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أن مسمى هذه الأسماء منقسم إلى ما يمدح عليه المسمى به، وإلى ما يذم، فيحسن في موضع، ويقبح في موضع، فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه في موضع، ويقبح في موضع، فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يسمى بها سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهي التي يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد بها دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سُمّي بهذه الأسماء، وقيل له هذه مدحتك وثناءٌ عليك، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه ويعدّها مدحة، ولله المثل الأعلى سبحانه[1].

●●●

الفصل السادس

تنزيه الأسماء الحسنى عن الشر

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦] فصدّر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله، وأنه سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء لا غيره، فالأول تفرّده بالملك، والثاني تفرّده بالتصرف فيه، وأنه سبحانه هو الذي يُعزُّ من يشاء بما يشاء من أنواع العز ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأنّ الخير كله بيديه ليس لأحدٍ معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿إنّك على كل شيء قدير﴾.

فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه وعموم قدرته، وتضمنت أنّ هذه التصرفات كلها بيده وأنها كلها خير، فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير، وإن كان شرّاً بالنسبة إلى المسلوب الذليل؛ فإن هذا التصرف

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٤٠٤).

دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويُثنَى عليه به، كما يحمد ويُثنى عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه، كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يثني على ربّه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»[(١)] فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بكل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شرّاً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شرّاً كما سيأتي بيانه، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله وخلقه، وفعله وقضاؤه وقدره خير كلّه، ولهذا تنزّه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه كما تقدّم، فلا يضع الأشياء إلاّ في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر: وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شرّاً، فعلم أن الشرّ ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك[(٢)].

معاني قوله ﷺ «والشر ليس إليك»:

إنّ النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبرّه وكرمه، ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه، وأما العذاب والعقوبة فإنما هو من مخلوقاته، ولذلك لا يسمّى بالمعاقِب والمعذِّب، بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه، وهذا من مفعولاته حتى في الآية الواحدة كقوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئۡ

(١) رواه مسلم (٧٧١) في صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، والترمذي (٣٤٢٢) في الدعوات، باب: (٣٢)، والنسائي (٢/ ١٣٠) في الافتتاح.

(٢) شفاء العليل (ص ١٧٨ ـ ١٧٩).

عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ومثلها في آخر الأنعام، فما كان من مقتضى أسمائه وصفاته فإنه يدوم بدوامها، ولاسيما إذا كان محبوباً له، وهو غاية مطلوبة في نفسها، وأمّا الشر الذي هو العذاب فلا يدخل في أسمائه وصفاته، وإن دخل في مفعولاته لحكمةٍ إذا حصلت زال وفني، بخلاف الخير فإنه سبحانه دائم المعروف لا ينقطع معروفه أبداً، وهو قديم الإحسان أبدي الإحسان، فلم يزل ولا يزال محسناً على الدوام، وليس من موجب أسمائه وصفاته أنه لا يزال معاقباً على الدوام، غضبان على الدوام، منتقماً على الدوام.

فتأمل هذا الوجه تأمُّل فقيهٍ في باب أسماء الله وصفاته، يفتح لك باباً من أبواب معرفته ومحبته.

يوضّحه قول أعلم خلقه به، وأعرفهم بأسمائه وصفاته «والشرُّ ليس إليك» ولم يقف على المعنى المقصود من قال: الشرُّ لا يتقرب به إليك، بل الشر لا يضاف إليه سبحانه بوجه، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه، وصفاته كلها صفات كمال يحمد عليها ويثنى عليه بها، وأفعاله كلها خير ورحمة وعدل وحكمة لا شر فيها بوجه ما، وأسماؤه كلها حُسنى، فكيف يضاف الشر إليه؟ بل الشر في مفعولاته ومخلوقاته، وهو منفصل عنه، إذ

فعله غير مفعوله، ففعله خير كله، وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر، وإذا كان الشر مخلوقاً منفصلاً غير قائم بالرب سبحانه، فهو لا يضاف إليه، وهو ﷺ لم يقل أنت لا تخلق الشر حتى يطلب تأويل قوله، وإنما نفى إضافته إليه وصفاً وفعلاً واسماً[1].

●●●

الفصل السابع

تجلّيات الرب تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى

لا ريب أن الله وصف نفسه بصفات، وسمّى نفسه بأسماء، وأخبر عن نفسه بأفعال، وأخبر أنه يحب ويكره، ويمقت ويرضى، ويغضب ويسخط، ويجيء ويأتي، وينزل إلى سماء الدنيا، وأنه استوى على عرشه، وأن له علماً وحياة، وقدرة وإرادة، وسمعاً وبصراً ووجهاً، وأن له يدين، وأنه فوق عباده، وأن الملائكة تعرج إليه وتنزل بالأمر من عنده، وأنه قريب، وأنه مع المحسنين ومع الصابرين ومع المتّقين، وأن السموات مطويات بيمينه. ووصفه رسوله بأنه يفرح ويضحك، وأن قلوب العباد بين أصابعه وغير ذلك.

وإذا تجلّى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيّته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكُّل عليه والتفويض إليه والرضا به، وما في كل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه، والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به، ويختاره له.

---

(١) حادي الأرواح (ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥).

وإذا تجلّى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلٰهيته تارةً وبصفات ربوبيته تارةً، فيوجب له شهود صفات الإلٰهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه.

ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.

وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزّه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله وانتقامه وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن، وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين؛ أشهدك ملكاً قيوماً فوق سمواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويمنع، ويعز، ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع ويعلم السر والعلانية، فعَّال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا

بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع[1].

●●●

الفصل الثامن

دلالة أسمائه الحسنى على ذاته وتوحيده

إنّ الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده؛ فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه سبحانه وتعالى، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه سبحانه وتعالى، وهو الذي لا يُحَدُّ كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه.

وإذا كان الكمال محبوباً لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته؛ إذ لا شيء أكمل منه، وكل اسم من أسمائه، وصفة من صفاته وأفعاله دالة عليه؛ فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل، وعلى كل ما أمر، إذ ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سفه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه، وكلامه كله صدق وعدل، وجزاؤه كله فضل وعدل. فإنه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته.

ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ   كلاّ، ولا سعي لديه ضائع

---

(١) الفوائد (ص ٧٠ ـ ٧١).

إن عُـذِّبـوا فبعـدلـه، أو نعمـوا فبفضله، وهو الكريمُ الواسع(١)

وهو سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشرك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك، كقول هارون لعبدة العجل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠] وقوله سبحانه في القصة: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٣] فسبّح نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له.

ومن تدبر هذا المعنى في القرآن هبط به على رياض من العلم، حماها الله عن كل أفّاك معرض عن كتاب الله، واقتباس الهدى منه.

وأيضاً فإنّ الله سبحانه يعلِّق بأسمائه المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلاماً محضة لم يصح فيها ذلك كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: ٩٥] و ﴿ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: ٦٣]. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤] ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ

(١) طريق الهجرتين (ص ٣٩١).

بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ [البقرة: ١٩] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٩] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ [هود: ١١١] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ١٨] ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧] ونظائره كثيرة.

وأيضاً فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلاً على ما ينكره الجاحدون من صفات كماله كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤][1].

دلالة الأسماء الحسنى على حكمته وقدرته عز وجل:

اعلم أنَّ مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزَّته وحكمته، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين من هذه الثلاثة كثيراً كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦] وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ١] وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: ١ ــ ٢] وقال في حمٓ بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١٢] وذكر نظير هذا فقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦].

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي ألا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطه بحكمته

---

(١) جلاء الأفهام (ص ٩٥ ــ ٩٦).

يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة[1].

وتأمّل العبرة في موضع هذا العالم، وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدلّه على كمال قدرة خالقه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال لطفه، فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد، فيه جميع آلاته ومصالحه، وكل ما يحتاج إليه، فالسماء سقفه المرفوع عليه، والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه، والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمنتقل في طرق هذه الدار، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدّة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له، وضروب النبات مهيأ لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه، فمنها الركوب، ومنها الحلوب، ومنها الغذاء، ومنها اللباس والأمتعة والآلات، ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لإهلاكه وأذاه، فلولا ما سلّط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم، وجعل الإنسان كالملك المخول في ذلك المحكم فيه، المتصرف بفعله وأمره، ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم، قدّره أحسن تقدير، ونظمه أحسن نظام، وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الإلٰه واحد لا إلٰه إلا هو، تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً.

وإنّه لو كان في السمٰوات والأرض إلٰه غير الله لفسد أمرهما، واختل نظامهما، وتعطّلت مصالحهما، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبِّر له

---

(١) طريق الهجرتين (ص ١٢٥).

روحان متكافئان متساويان، ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث، هذا من المحال في أوائل العقول وبدائه الفِطَر، فلو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١ ــ ٩٢].

فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقَدْح صحيح، أو يأتوا بأحسنَ منهما، ولا يعترض عليهما إلاّ من لم يفهم المراد منهما. ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب، والبرهان الباهر، وسنفرد إن شاء الله كتاباً مستقلاً لأدلة التوحيد[١].

●●●

الفصل التاسع

آيات الأحكام وآيات الصفات الحسنى

تنازع الناس في كثير من الأحكام[٢]، ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها. وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً، وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله سبحانه وتعالى ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لبس يوقع الراسخين في العلم.

(١) مفتاح السعادة (٢/٢٠٦ ــ ٢٠٧).
(٢) ينظر الباب الثالث والأربعون من الإتقان في علوم القرآن.

وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلاّ الخاصة من الناس. وأمّا آيات الصفات فيشترك في فهم معناها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية. ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] حتى بيّن لهم بقوله (من الفجر)[(١)].

ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية، وغيرها من آيات الصفات.

وأيضاً فإن آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنّة كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام، فبينته السنّة بأنه صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، ونظائره كثيرة كآية السرقة وآية الصلاة والزكاة والحج.

وليس في آيات الصفات وأحاديثها مجمل يحتاج إلى بيان من خارج، بل بيانها فيها وإن جاءت السنّة بزيادة في البيان والتفصيل[(٢)].

● ● ●

الفصل العاشر

لا تأويل في آيات الصفات الحسنى

لما كان وضع الكلام للدلالة على مراد المتكلم؛ وكان مراده لا

---

(١) ذكر الطبري عن السدي في تفسير الآية قوله: حتى يتبين لكم النهار من الليل، ثم أتموا الصيام إلى الليل. ومثله عن ابن عباس (تفسير الطبري ١/ ١٧١ ـ ١٧٣).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص ٧).

يعلم إلا بكلامه، انقسم كلامه ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو نصٌّ في مراده لا يقبل محتملاً غيره.

الثاني: ما هو ظاهر في مراده وإن احتمل أن يريد غيره.

الثالث: ما ليس بنص ولا ظاهر في المراد، بل هو محتمل محتاج إلى البيان.

فالأول يستحيل دخول التأويل فيه، إذ تأويله كذب ظاهر على المتكلم، وهذا شأن عامة نصوص القرآن الصريحة في معناها، خصوصاً آيات الصفات والتوحيد. وأنّ الله مكلِّم، متكلِّم، آمر، ناهٍ، قائل، مخبر، موجد. حاكم، واعد، موعد، مبيّن، هادٍ، داع إلى دار السلام، وأنه تعالى فوق عباده عالٍ على كل شيء، مستوٍ على عرشه[1]، ينزل الأمر من عنده، ويعرج إليه، وأنه فعال حقيقة، وأنه كل يوم في شأن، فعّال لما يريد، وأنه ليس للخلق من دونه ولي ولا شفيع يطاع ولا ظهير، وأنه المتفرد بالربوبية والتدبير والقيومية ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه: ٧] ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأنه يسمع الكلام الخفي كما يسمع الجهر، ويرى ما في السموات والأرض، ولا تخفى عليه منها ذرة واحدة. وأنه على كل شيء قدير، ولا يخرج مقدور واحد عن قدرته ألبتة، كما لا يخرج عن علمه وتكوينه، وأن

---

(١) ذكر د. محمد سعيد رمضان البوطي حول هذه النصوص المتشابهة وما يندرج فيها من آيات الصفات قوله: «والمصير المتعيَّن في هذه الحالة هو تفسير هذه الألفاظ على ظاهرها مما يتفق مع تنزيه الله عز وجل عن الشبيه والشريك، وهو يتضمن الاحتراز عن تفسيرها بالجارحة والجسمية؛ فيقال مثلاً: استوى على عرشه كما قال استواء يليق بجلاله وأحديته، وله يد كما قال تليق بألوهيته وجلاله». إلخ. (السلفية مرحلة زمنية مباركة ص ١٣٢).

له ملائكة مدبرة بأمره للعالم تصعد وتنزل، وتتحرك، وتنتقل من مكان إلى مكان، وأنه يذهب بالدنيا ويخرب هذا العالم ويأتي بالآخرة، ويبعث مَنْ في القبور، إلى أمثال ذلك من النصوص التي هي في الدلالة على مرادها كدلالة لفظ العشرة والثلاثة على مدلولها، وكدلالة لفظ الشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والخيل والبغال والإبل والبقر والذكر والأنثى على مدلولها، لا فرق بين ذلك ألبتة[1].

□□□

(١) الصواعق المرسلة (ص ٥٠ ــ ٥١).

الباب الثاني

تقسيم أسماء الله الحسنى

الفصل الأول: ما يُذكر في الذات والنعوت وأسامي الله تعالى.

الفصل الثاني: أسماء الله الحسنى، ونفي السلب عنها.

الفصل الثالث: أسماء الله الحسنى وصفاته.

الفصل الأول

ما يُذكر في الذات والنعوت وأسامي الله تعالى

ما يجري صفةً أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات كقولك: ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو الخالق والرّازق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بُدّ من تضمنه ثبوتاً؛ إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد، نحو المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدلّ على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المَرْخُ والعَفار[1]، وأمجد الناقة علفاً.

ومنه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي

---

(١) استمجد: استفضل، أي: استكثَرا من النار؛ كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما، فصلحا للاقتداح بهما. (لسان العرب مادة مجد).

وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى المتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه.

ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي : «ألظّوا بـ: ياذا الجلال والإكرام»[1].

ومنه: «اللّهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنّان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام»[2] فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسؤول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فُتِحَ لمن بَصَّرهُ الله.

فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد، قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهى إليه السؤدد فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة كما قال[3]:

---

(١) رواه أحمد (٤/١٧٧)، والترمذي (٣٥٢٥) في الدعوات، باب (٩٢)، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) سبق تخريجه ص (٤٣).

(٣) الشاعر سبرة بن عمرو الأسدي، ورواية البيت في معاني القرآن للزجاج:
لقد بكّر الناعي بخيري بني أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسيّد الصمد =

ألا بكَّر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمي أشرافها بالصمد؛ لاجتماع قصد القاصدين إليه واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين الوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف(١).

● ● ●

الفصل الثاني

أسماء الله تعالى، ونفي السلب عنها

صفات السلب المحض لا تدخلُ في أوصافه تعالى إلاَّ أن تكون متضمنة لثبوت؛ كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلٰهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتاً كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [قٓ: ٣٨] متضمن لكمال قدرته. وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن

= معاني القرآن للزجاج (٣٧٨/٥). وانظر: الأغاني ط دار الكتب (٢٢/ ٩٢)، خزانة الأدب (٥٠٩/٤)، لسان العرب (حمد) والصحاح (خير).

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٥٩ ــ ١٦٤).

رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له. وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته وأنه جلّ عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطَّرد في كلّ ما وصف به نفسه من السلوب، ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أنّ الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليها منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع؛ فإنّ هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سمّاه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعّال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبراً.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيداً أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من أسمائه الحسنى المضل الفاتن الماكر، تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة، والله أعلم[1].

---

(١) إن الصحابة وعلماء الإسلام حين عدَّدوا الأسماء ذكروا المشتق والمضاف=

الرابع: أن أسماءه الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم؛ لأنّ أوصافهم مشتركة، فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات؛ دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران، اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: أن ما يُطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يُطلق عليه من الأخبار لا يجبُ أن يكونَ توقيفياً كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه. فهذا فصلُ الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية، أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع[1].

الثامن: أن الاسم إذا أُطلق عليه جاز أن يشتقّ منه المصدر والفعل فيخبر به عنه فعلاً ومصدراً، نحو: السميع البصير القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو: ﴿ قَدْ سَمِعَ

= والمطلق في مساق واحد، إجراءً على الأصل ونبذاً للقاعدة النحوية. ينظر: (أحكام القرآن لابن العربي ص ٨٠٣).

(١) قال الشهاب الخفاجي ما نصه:

«كون أسماء الله تعالى توقيفية مطلقاً هو المشهور، وفيها أقوال أُخر، فقيل التوقيف في الأسماء دون الصفات، وقيل يجوز مطلقاً ما لم توهم نقصاً، وقيل يكفي ورود مادته في لسان الشارع، والصحيح الأول». (حاشية الشهاب ٤/ ٢٣٩).

ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ١] ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٣] هذا إن كان الفعل متعدياً، فإن كان لازماً لم يخبرْ عنه به، نحو: الحي، بل يُطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال: حَيِي.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالربُّ لم يزلْ كاملاً، فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنَّه كاملٌ بذاته وصفاته، فأفعالُه صادرةٌ عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقاً له تعالى أو أمراً، إما علم بما كونه، أو علم بما شرعه. ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كلّه مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسنٌ لا يخرجُ عن مصالح العباد، والرأفة والرحمة بهم، والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كلّه مصلحة، وحكمة، ورحمة، ولطف، وإحسان، إذ مصدرُه أسماؤه الحسنى، وفعله كلّه لا يخرجُ عن العدل، والحكمة، والمصلحة، والرحمة، إذ مصدرُه أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه، ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سُدى ولا عبثاً، وكما أن كلَّ موجودٍ سواه فبإيجاده، فوجودُ مَن سواه تابعٌ لوجوده تبعَ المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلمُ بها أصلٌ للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع

العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصلٌ لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها.

وتأمَّل صدورَ الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتاً؛ لأنَّ الخللَ الواقعَ فيما يأمر به العبد، أو يفعله إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل، ولا تفاوت، ولا تناقض.

الحادي عشر: أنّ أسماءه كلّها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، وقد تقدَّم أنَّ من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو الخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، وهذا يدلُّ على أنَّ أفعاله كلّها خيرات محض لا شرّ فيها؛ لأنه لو فعل الشرّ لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطلٌ، فالشرُّ ليس إليه، فكما لا يدخلُ في صفاته، ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه[1]، لا يُضاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخلُ في مفعولاته.

وفرق بين الفعل والمفعول، فالشرّ قائم بمفعوله المباين له لا بفعله الذي هو فعله، فتأمل هذا فإنّه خفي على كثيرٍ من المتكلمين، وزلَّت فيه أقدام، وضلَّت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

(١) هذا كما ورد في الحديث الشريف: «لبيك وسعديك والخير في يديك» رواه البخاري ومسلم.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهو مرتبتان، إحداهما: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يُثنى عليه إلاّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يُسأل إلاّ بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يُسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومَن تأمّل أدعيةَ الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقةً لهذا، وهذه العبارةُ أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله[1]، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإلٰه على قدر الطاقة. وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن بَرَّجان[2] وهي: التعبد، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهي: الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال[3]. فمراتبها أربعة، أشدها إنكاراً عبارة الفلاسفة، وهي التشبه، وأحسن منها عبارة من قال: التخلق، وأحسن منها عبارة من قال: التعبد،

---

(١) ذكر الغزالي في كتابه: «المقصد الأسنى» قوله ﷺ: «تخلّقوا بأخلاق الله تعالى» وقوله: «إنَّ لله كذا وكذا خلقاً، من تخلّق بواحد منها دخل الجنة» (المقصد الأسنى ص ١٥٠) والحديث الأول غير ثابت، أما الثاني فذكر الإمام العراقي أن الطبراني رواه في الأوسط، وذكر نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (ص ٣٥٧).

(٢) هو عبد السلام بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمي الأشبيلي الصوفي المفسّر، له كتاب «تفسير القرآن»، و «شرح أسماء الله الحسنى» مات بمراكش سنة (٥٣٦ هـ) (فوات الوفيات ١/ ٢٧٤ ولسان الميزان ٤/ ١٣ والأعلام ٤/ ٦).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [الأعراف: ١٨٠] وانظر باب: السؤال بأسماء الله في كتاب: «التوحيد في صحيح البخاري».

وأحسن من الجميع: الدعاء، وهي لفظ القرآن.

الثالث عشر: اختلف النظارُ في الأسماء التي تُطلق على الله وعلى العباد، كالحي، والسَّميع، والبصير، والعليم، والقدير، والملك، ونحوها، فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقةٌ في العبد، مجازٌ في الرب، وهذا قولُ غلاة الجهمية، وهو أخبثُ الأقوال، وأشدّها فساداً.

الثاني: مقابله، وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قولُ أبي العباس الناشىء.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قولُ أهل السنة، وهو الصواب. واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما. وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به.

فألفاظ فاعل، وعامل، ومكتسب، وكاسب، وصانع، ومحدث، وجاعل، ومؤثر، ومنشىء، وموجد، وخالق، وبارىء، ومصور، وقادر، ومريد، هذه الألفاظ ثلاثة أقسام:

قسم لم يطلق إلاّ على الرب سبحانه كالبارىء، والبديع، والمبدع.

وقسم لا يطلق إلاّ على العبد كالكاسب، والمكتسب.

وقسم وقع إطلاقه على الرب والعبد كاسم صانع، وفاعل، وعامل، ومنشىء، ومريد، وقادر.

وأما الخالق والمصور فإن استُعْمِلا مطلقين غير مقيدين، لم يُطلقا إلاّ على الرب، كقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] وإنْ اسْتُعْمِلا مقيدين أطلقا على العبد، كما يقال لمن قدر شيئاً في نفسه أنه خلقه، قال[1]:

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان. انظر شرح ديوان زهير =

ولأنــتَ تَفْــرِي مــا خَلَقْــتَ وَبَعْـ ـــضُ القَــوْمِ يَخْلُــقُ ثُــمّ لا يَفْــرِي

أي: لك قدرة تمضي، وتنفذ بها ما قدرته في نفسه، وغيرك يقدر أشياء وهو عاجزٌ عن إنفاذها وإمضائها، وبهذا الاعتبار صحّ إطلاقُ خالق على العبد في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي: أحسن المصورين والمقدرين، والعرب تقول: قدرت الأديم، وخلقته: إذا قسته لتقطع منه مزادة أو قربة ونحوها.

قال مجاهد: يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين.

وقال الليث: رجل خالق، أي: صانع، وهن الخالقات، للنساء.

وقال مقاتل: يقول تعالى هو أحسن خلقاً من الذين يخلقون التماثيل وغيرها التي لا يتحرك منها شيء.

وأما البارىء فلا يصحُّ إطلاقه إلاّ عليه سبحانه؛ فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها.

الرابع عشر: أن الاسمَ والصِّفة[1] من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافاً إلى الرب مختصاً به.

الثالث: اعتباره مضافاً إلى العبد مقيداً به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتاً للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما

= (ص ٩٤)، والشاهد في كتاب سيبويه (٢/ ٢٨٩) وفي المنصف (٢/ ٧٤، ٢٣٢)، وفي تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (ص ٣٦).

(١) هذه قاعدة أسّسها سيبويه ليرتب عليها قانوناً من الصناعة في التصريف والجمع والتصغير والحذف والزيادة والنسبة وغير ذلك من الأبواب، إذ لحظ ذلك في مجاري العربية.

يليق به. وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراكُ المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤيةُ المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإنَّ شرطَ صحة إطلاقها حصولُ معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالى لا محذورَ فيه بوجه، بل ثبتت له على وجهٍ لا يُماثله فيه خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله.

ومن أثبته له على وجهٍ يُماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليقُ بجلاله وعظمته، فقد برىء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريقُ أهل السنة، وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسِّنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك.

وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به.

وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه، وكونه محمولاً به، مفتقراً إليه، محاطاً به.

كلّ هذا يجبُ نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى، وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالى بها، فإنه لا يثبت للمخلوق بوجهٍ، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإنّ ما يختصّ به منها لا يمكن إثباتُه للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبراً، وعقلتها كما ينبغي، خلصت من الآفتين اللتين هما أصلُ بلاء المتكلمين: آفة التعطيل، وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبتَّ لله الأسماء الحسنى، والصفات العُلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من

التشبيه، فتدبر هذا الموضع، واجعله جُنَّتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفقُ للصواب[1].

الخامس عشر: أنَّ الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة:

أمران لفظيان، وأمران معنويان.

فاللفظيان ثبوتي وسلبي، فالثبوتي: أن يشتق للموصوف منها اسم، والسلبي: أن يمتنعَ الاشتقاق لغيره.

والمعنويان ثبوتي وسلبي، فالثبوتي: أن يعودَ حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه، والسلبي: ألا يعودَ حكمها إلى غيره، ولا يكون خبراً عنه، وهي قاعدةٌ عظيمة في معرفة الأسماء والصفات، فلنذكر من ذلك مثالاً واحداً وهو صفة الكلام، فإنه إذا قامتْ بمحلٍّ كانت هو التكلم دون من لم تقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال، وأمر، ونهى، ونادى، وناجى، وأخبر، وخاطب، وتكلّم، وكلّم، ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكامُ لغيره، فيستدلّ بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها عن غيره على عدم قيامها به، وهذا هو أصلُ السنة الذي ردّوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصحِّ الأصول طرداً وعكساً.

السادس عشر: أنَّ الأسماء الحسنى لا تدخلُ تحت حصر ولا تحدّ بعدد، فإنّ لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملكٌ مقرب، ولا نبيّ مرسل، كما في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو

---

(١) توسّع ابن القيم في حديثه عن إثبات الصفات ومعرفتها، ونفي التحريف، والتعطيل عن نصوصها، ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها في كتاب «الصواعق المرسلة»، وكتاب «مدارج السالكين» (٣/ ٣٨ ــ ٣٩).

استأثرت به في علم الغيب عندك»[1].

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام:

قسم سمّى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه.

وقسم أنزل به كتابه، فتعرف به إلى عباده.

وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه، ولهذا قال: «استأثرت به» أي: انفردت بعلمه، وليس المرادُ انفراده بالتسمِّي به؛ لأنَّ هذا الانفرادَ ثابتٌ في الأسماء التي أنزل بها كتابه.

ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن»[2] وتلك المحامد هي تفي بأسمائه وصفاته.

ومنه قوله ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[3].

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»[4] فالكلامُ جملة واحدة.

وقوله: «من أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقل. والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها أنَّ من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينفي أن

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٩١، ٤٥٢).

(٢) رواه البخاري (٧٤١٠) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾ ومسلم (١٩٣) (٣٢٦) في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) رواه مسلم (٤٨٦) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، وأبو داود (٨٧٩) في الصلاة، باب: في الدعاء في الركوع والسجود.

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٦٧) ومسلم (٢٦٧٧) (٦) في الذكر والدعاء، باب: في أسماء الله تعالى، والترمذي (٣٥٠٦) في الدعوات.

يكونَ له أسماء غيرها، وهذا كما تقول: لفلان مئة مملوك قد أعدّهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكونَ له مماليك سواهم معدّون لغير الجهاد، وهذا لا خلافَ بين العلماء فيه[1].

السابع عشر: أنّ أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره، وهو غالبُ الأسماء، كالقدير، والسميع، والبصير، والعزيز، والحكيم، وهذا يسوغُ أن يُدعى به مفرداً ومقترناً بغيره، فتقول: يا عزيز يا حليم، يا غفور يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع. ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقروناً بمقابله، كالمانع، والضار، والمنتقم، فلا يجوزُ أن يفردَ هذا عن مقابله، فإنه مقرونٌ بالمعطي والنافع والعفوّ، فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفوّ، المعز المذل؛ لأنَّ الكمالَ في اقتران كلّ اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يُرادُ به أنه المنفرد بالربوبية، وتدبير الخلق، والتصرف فيهم، عطاء ومنعاً، ونفعاً وضراً، وعفواً وانتقاماً[2].

وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماءُ المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنعُ

---

(١) خالفهم ابن حزم فزعم أن أسماءه تعالى تنحصر في هذا العدد كما ذكر ابن القيم في «شفاء العليل». وقال القرطبي في «شرح الأسماء الحسنى» له: العجب من ابن حزم ذكر من الأسماء الحسنى نيّفاً وثمانين فقط، والله يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ راجع المحلّى لابن حزم (٨/ ٣١) وأحكام القرآن لابن العربي (ص ٨٠٣).

(٢) قال الزّجاج في شرح أسماء الله (القابض والباسط): الأدب في هذين الاسمين أن يذكرا معاً، لأن تمام القدرة بذكرهما معاً؛ وفي شرح الضّار النافع: الجمع بينهما أدلُّ على القدرة وتمام الحكمة، وكذلك كلّ اسمين يؤدّيان بمجموعهما عن معنى واحد. (تفسير أسماء الله الحسنى ص ٤٠، ٦٣).

فَصْلُ بعض حروفه عن بعض، فهي ــ وإن تعدّدت ــ جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردةً، ولم تطلق عليه إلا مقترنةً فاعلمه، فلو قلت: يا مذلّ، يا ضار، يا مانع، وأخبرت بذلك لم تكن مثنياً عليه، ولا حامداً له حتى تذكر مقابلها.

الثامن عشر: أنَّ الصفات ثلاثة أنواع:

صفات كمال.

وصفات نقص.

وصفات لا تقتضي كمالاً ولا نقصاً.

وإن كانت القسمةُ التقديرية تقتضي قسماً رابعاً، وهو ما يكونُ كمالاً ونقصاً باعتبارين، والربُّ تعالى مُنَزَّهٌ عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، وصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوفٌ من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله.

وهكذا أسماؤه الدَّالَّة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرُها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسيرُ الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم.

وإذا عرفتَ هذا فله من كلِّ صفة كمال أحسن اسم، وأكمله، وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص، فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر، ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود دون الرفيق والشفوق ونحوهما، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم دون السخي، والخالق البارىء المصوِّر دون الفاعل الصانع المشَكِّل، والغفور العفوّ دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها، وأحسنها، وما لا يقوم غيره مقامه، فتأمَّل ذلك، فأسماؤه أحسنُ الأسماء، كما أنَّ صفاته أكمل الصفات، فلا تعدلْ عما سمَّى به نفسه إلى غيره، كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون والمعطِّلون.

التاسع عشر: أنَّ مِن أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدَّال على الصفة الواحدة لها، كما تقدَّم بيانُه كاسمه العظيم والمجيد والصمد، كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابنُ أبي حاتم في تفسيره الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه. هذه صفتُه لا تنبغي إلا له، ليس له كفواً أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

هذا لفظه، وهذا مما خفي على كثيرٍ ممن تعاطى الكلامَ في تفسير الأسماء الحسنى، ففسّر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحطْ بهذا علماً بخس الاسم الأعظم حقه، وهضمه معناه، فتدبَّره.

العشرون: وهي الجامعةُ لما تقدَّم من الوجوه، وهو معرفةُ الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]

والإلحاد في أسمائه[1] هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذٌ من الميل، كما تدلُّ عليه مادته: ل ح د. فمنه اللحد، وهو الشقُّ في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدين؛ المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابنُ السكِّيت[2]: الملحد: المائل عن الحق، المُدْخِل فيه ما ليس منه. ومنه الملتَحد، وهو مفتَعل من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [الكهف: ٢٧] أي: من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجىء إليه، وتبتهل إليه، فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان؛ إذا عدل إليه.

إذا عُرِف هذا، فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمِّي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلٰهية، والعزّى من العزيز. وتسميتهم الصنم إلٰهاً، وهذا إلحادٌ حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو عِلّة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه، ويتقدَّس من النقائص، كقول أخبث

---

(١) انظر في تفسير الإلحاد: جامع البيان للطبري (٩/ ١٣٣ ـ ١٣٤) ومعاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٩٢) والكشاف (٢/ ١٣٢) وزاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٢٩٣) والبحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٢٩) وحاشية الشهاب الخفاجي (٤/ ٢٣٩) واللسان لابن منظور (لحد).

(٢) هو يعقوب بن إسحاق: عالم بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر، راوية ثقة، أخذ من البصريين والكوفيين، له تصانيف كثيرة في النحو ومعاني الشعر وتفسير دواوين العرب، توفي سنة ٢٤٤ هـ (بغية الوعاة ٢/ ٣٤٩).

اليهود: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خَلَق خلقه. وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وأمثال ذلك مما هو إلحادٌ في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنّها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع، والبصير، والحي، والرحيم، والمتكلم، والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به، وهذا مِن أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً، ولغة وفطرة، وهو يقابلُ إلحاد المشركين، فإنَّ أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله، وجحدوها، وعطّلوها، فكلاهما ملحدٌ في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي، والمتوسط، والمنكوب. وكلّ مَن جَحَد شيئاً عما وَصَفَ اللَّهُ به نفسه، أو وصفه به رسوله، فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً. فهذا الإلحادُ في مقابلة إلحاد المعطلة، فإنّ أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحادُ، وتفرَّقتْ بهم طرقه، وبرأ اللَّهُ أتباعَ رسوله وورثته القائمين بِسُنَّته عن ذلك كلِّه، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبّه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطّل حتى كأنه لا يعبدُ إلا عدماً. وأهل السنة وسَط في النِّحَل، كما أن أهل الإسلام وسط في المِلَل. تُوقَد مصابيحُ معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء

ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء.

فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره، ويسهِّل لنا السبيلَ إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريب مجيب.

فهذه عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يُوصف به الرب تبارك وتعالى، فعليك بمعرفتها ومراعاتها، ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدتَ قلباً عاقلاً، ولساناً قائلاً، ومحلاً قابلاً، وإلا فالسكوتُ أولى بك، فجنابُ الربوبية أجلّ وأعزّ مما يخطر بالبال، أو يعبر عنه المقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف: ٧٦] حتى ينتهي العلم إلى مَن أحاط بكل شيء علماً[١].

●●●

الفصل الثالث

أسماء الله الحسنى وصفاته

اللّـــه

اسم الله جل جلاله هو الجامعُ، ولهذا تُضافُ الأسماءُ الحسنى كلّها إليه، فيقال: الرحمٰن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماءِ الله، ولا يقال: الله من أسماءِ الرحمٰن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهذا المشهدُ تجتمعُ فيه المشاهد كلّها، وكلّ مشهد سواه فإنما هو مشهدٌ لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية، وقام بحقّه من التعبُّد الذي هو كمالُ الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٥٩ ــ ١٧٠).

بوظائف العبودية، فقد تمّ له غناه بالإلٰه الحق، وصار من أَغنى العباد، ولسان حال مثل هذا يقول:

غَنِيْتُ بِلاَ مَالٍ عَنِ النَّاسِ كلِّهم وإنَّ الغِنَىٰ العالي عن الشَّيء لا به

فيا له من غنى ما أعظم خَطَرَه وأجلَّ قَدْرهُ! تضاءَلت دونه الممالك فما دونها، وصارت بالنسبة إليه كالظِّلّ من الحامل له، والطَّيف الموافي في المنام؛ الذي يأتي به حديث النفس، ويطرده انتباه من النوم[1].

* * *

(١) طريق الهجرتين ص (٦٨).

الرحمن الرحيم

استبعد قومٌ أن يكون (الرحمٰنُ) نعتاً لله من قولنا: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وقالوا: الرحمٰن علم، والأعلامُ لا يُنْعَتُ بها، ثم قالوا: هو بدل من اسم الله. قالوا: ويدلُّ على هذا أنَّ الرحمٰن علم مختصٌّ بالله لا يشاركه فيه غيره، فليس هي كالصفات التي هي العليم والقدير والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى.

قالوا: ويدلُّ عليه أيضاً وروده في القرآن غير تابع لما قبله كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمٰن: ١ ــ ٢] ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠].

وهذا شأنُ الأسماء المحضة؛ لأنّ الصفات لا يقتصرُ على ذكرها دون الموصوف. قال السهيلي: «والبدل عندي فيه ممتنع، وكذلك عطف البيان؛ لأنَّ الاسمَ الأول لا يفتقر إلى تبيين فإنه أعرف المعارف كلّها وأبينها، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] ولم يقولوا: وما الله.

ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام فهو وَصْفٌ يُراد به الثناء، وكذلك الرحيم، إلا أنَّ الرحمٰن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه، وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية، فإنّ التثنية في الحقيقة تضعيفٌ، وكذلك هذه الصفة، فكأنّ غضبان وسكران حاملٌ لضعفين من الغضب والسكر، فكان اللفظُ مضارعاً للفظ التثنية؛ لأنَّ

التثنيةَ ضعفان في الحقيقةِ، ألا ترى أنهم أيضاً قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين متلازمين؟!.... فقالوا: الحكمان والعلمان، وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد، فقالوا: اشترك باب فعلان وباب التثنية..... وفائدة الجمع بين الصِّفتين الرحمٰن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة، وخاصّة وعامةً.

وأمّا الجمع بين الرحمٰن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أنَّ الرحمٰن دالّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دالّ على أن الرحمة صفته، والثاني دالّ على أنه يرحم خَلْقَهُ برحمته.

وإذا أردتَ فَهْمَ هذا فتأمّل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]. ولم يَجِئْ قطّ رحمن بهم، فَعُلِمَ أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته.

وهذه نكتةٌ لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفّست عندها مرآةُ قلبك لم ينجلِ لك صورتها[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٣).

الملك الحق

من أسمائه الملك، ومعنى المُلْك الحقيقي ثابت له سبحانه بكل وجه، وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال؛ إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة ولا قدرة، ولا إرادة ولا سمع ولا بصر، ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به، وكيف يوصف بالملك من لا يأمر ولا ينهى، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يعزّ ويذل، ويهين ويكرم، وينعم وينتقم، ويخفض ويرفع، ويرسل الرسل إلى أقطار مملكته، ويتقدم إلى عبيده بأوامره ونواهيه، فأي ملك في الحقيقة لمن عدم ذلك؟ وهذا يبيّن أنّ المعطّلين لأسمائه وصفاته جعلوا مماليكه أكمل منه، ويأنف أحدهم أن يقال في أميره وملكه ما يقوله هو في ربه، فصفة ملكية الحق مستلزمة لوجود ما لا يتم التصرف إلاّ به.

والكل منه سبحانه، فلم يتوقّف كمال ملكه على غيره، فإن كلّ ما سواه مسند إليه، متوقف في وجوده على مشيئته وخلقه؛ يوضّحه أنّ كمال ملكه بأن يكون مقارناً بحمده، فله الملك، وله الحمد.

والناس في هذا المقام ثلاث فرق:

فالرُّسُل وأتباعهم أثبتوا له الملك والحمد، وهذا مذهب من أثبت له القدر والحكمة وحقائق الأسماء والصفات، ونزّهه عن النقائص ومشابهة المخلوقات. ويوحشك في هذا المقام جميع الطوائف غير أهل السنة الذين لم يتحيّزوا إلى نحلة ولا مقالة ولا متبوع من أهل الكلام.

الفرقة الثانية: الذين أثبتوا له الملك، وعطّلوا حقيقة الحمد، وهم

الجبرية نفاة الحكمة والتعليل، القائلين بأنه يجوز عليه كلّ ممكن، ولا ينزه عن فعل قبيح، بل كل ممكن فإنه لا يقبح منه، وإنما القبيح المستحيل لذاته كالجمع بين النقيضين، فيجوز عليه تعذيب ملائكته وأنبيائه ورسله وأهل طاعته وإكرام إبليس وجنوده وجعلهم فوق أوليائه في النعيم المقيم أبداً، ولا سبيل لنا إلى العلم باستحالة ذلك إلا من نفى الخلف في خبره فقط، فيجوز أن يأمر بمشيئته ومشيئة أنبيائه والسجود للأصنام، وبالكذب والفجور وسفك ونهب الأموال، وينهى عن البر والصدق والإحسان والعفاف، ولا فرق في نفس الأمر بين ما أمر به ونهى عنه إلا التحكم بمحض المشيئة، وأنه أمر بهذا ونهى عن هذا من غير أن يكون فيما أمر به صفة حسن تقتضي محبته والأمر به، ولا فيما نهى عنه صفة قبح تقتضي كراهته والنهي عنه، فهؤلاء عطّلوا حمده في الحقيقة، وأثبتوا له ملكاً بلا حمد مع أنهم في الحقيقة لم يثبتوا له ملكاً، فإنهم جعلوه معطّلاً في الأزل والأبد لا يقوم به فعل ألبتة، وكثير منهم عطله عن صفات الكمال التي لا يتحقق كونه ملكاً ورباً وإلهاً إلا بها، فلا ملك أثبتوا ولا حمد.

الفرقة الثالثة: أثبتوا له نوعاً من الحمد، وعطّلوا كمال ملكه وهم القدرية؛ الذين أثبتوا نوعاً من الحكمة، ونفوا لأجلها كمال قدرته، فحافظوا على نوع من الحمد عطلوا له كمال الملك، وفي الحقيقة لم يثبتوا لا هذا ولا هذا، فإن الحكمة التي أثبتوها جعلوها راجعة إلى المخلوق لا يعود إليه سبحانه حكمها والملك الذي أثبتوه، فإنهم في الحقيقة إنما قرروا نفيه لنفي قيام الصفات التي لا يكون ملكاً حقاً إلا بها، ونفي قيام الأفعال الاختيارية، فلم يقم به عندهم وصف ولا فعل ولا له إرادة ولا كلام، ولا سمع ولا بصر، ولا فعل، ولا له حب ولا بغض،

معطّل عن حقيقة الملك والحمد، والمقصود أن عموم ملكه يستلزم إثبات القدر، وألا يكون في ملكه شيء بغير مشيئته فالله أكبر من ذلك وأجلّ، وعموم حمده يستلزم ألا يكون في خلقه وأمره ما لا حكمة فيه ولا غاية محمودة يفعل لأجلها، ويأمر لأجلها، فالله أكبر وأجلّ من ذلك.

والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام، وأيضاً فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تاماً، فإنّ الإيمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال، وهذا كلّه إنما يكون في دار الامتحان لا في جنة النعيم.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم ــ منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره ــ أن أعمال الرسل والأنبياء والمؤمنين في الدنيا أفضل من نعيم الجنة.

قالوا: لأنَّ نعيم الجنة حظّهم وتمتعهم، فأين يُقاس إلى الإيمان وأعماله، والصلوات، وقراءة القرآن، والجهاد في سبيل الله، وبذل النفوس في مرضاته، وإيثاره على هواها وشهواتها؟! فالإيمان متعلّق به سبحانه، وهو حقّه عليهم، ونعيم الجنة متعلّق بهم وهو حظّهم، فهم إنما خُلِقوا للعبادة، والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة.

وأيضاً فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة، وأعلم بذلك ملائكته، فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة، فلم يكن بدّ من إخراجه من الجنة إلى دار قدّر سكناهم فيها قبل أن يخلقه، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم؛ فمن أسبابه النهي عن تلك

الشجرة وتخليته بينه وبين عدوّه حتى وسوس إليه بالأكل، وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية.

وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة يترتّب على خروجه من الجنة، ثم يترتّب على خروجه أسباب أخر جعلت غايات لحكم أخر، ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه، فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة التي يحمده عليها أهل السموات والأرض والدنيا والآخرة، فما قدَّر أحكم الحاكمين ذلك باطلاً، ولا دبَّره عبثاً، ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام.

وأيضاً فإنه سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه؛ بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرّب إليه بأنواع التقرّب، ويبذل نفسه في محبّته ومرضاته؛ يسبّح بحمده آناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائماً وقاعداً وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السَّرَّاء والضرَّاء، والعافية والبلاء، والشدّة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء ولا فقر ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة، وغلبات الهوى، وتعاضد الطباع لأحكامها، ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصدّه ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه؛ فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع؛ فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

وأيضاً فإنه سبحانه أراد أن يُظْهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما

كانوا يعظّمونه ويجلّونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر، فذلك الخيرُ وهذا الشرّ كامنٌ في النفوس لا يعلمونهما، فلا بُدَّ من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كلّ منهما بما يليق به.

وأيضاً فإنه سُبحانه لما خلق خلقه أطواراً وأصنافاً، وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير مِمّن خَلَق تفضيلاً جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم، أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعاً واختياراً لا كرهاً واضطراراً، ولهذا أرسل اللَّهُ جبريلَ إلى سيّد هذا النوع الإنساني يخيّره بين أن يكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبداً رسولاً، وذكره سبحانه بأتم العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله؛ كمقام الدعوة والتحدّي والإسراء، وإنزال القرآن، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

فأثنى عليه ونوّه به لعبوديته التامة له، ولهذا يقول أهلُ الموقف حين يطلبون الشفاعة: «اذهبوا إلى محمد، عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[1].

فلما كانت العبوديةُ أشرفَ أحوال بني آدم وأحبّها إلى الله، وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها؛ كان من أعظم الحكمة أن أُخرجوا إلى دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٥) في الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، ومسلم (١٩٣) في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

وموجباتها، فكان إخراجُهم من الجنة تكميلاً لهم وإتماماً لنعمته عليهم، مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى؛ فإنه يحبّ إجابة الدعوات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلاّت، وتكفير السيئات، ودفع البليّات، وإعزاز من يستحقّ العز، وإذلال من يستحقّ الذل، ونصر المظلوم، وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر فضله وتخصيصه، فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على الشيء لا بدونه، وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة، كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل[1].

إنَّ الحقَّ الذي خُلِقت به السموات والأرض وما بينهما هو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها، يقرؤه كلّ موفق كاتب وغير كاتب، كما قيل:

تأمَّلْ سطورَ الكائناتِ فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خطّ فيها لو تأملتَ خطّها: ... ألا كلّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ

وأما الحقُّ الذي هو غاية خلقها؛ فهو غاية تُراد من العباد، وغاية تراد بهم، فالتي تُراد منهم أن يعرفوا اللَّهَ تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ١٢].

فأخبر أنّه خَلَق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه،

(١) شفاء العليل ص (٢٢٠).

وذلك يستلزمُ معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فهذه الغايةُ هي المرادةُ من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده، وأما الغايةُ المرادةُ بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥].

وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٣ ـ ٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخراً ووسطاً، وأنها خُلِقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق[١].

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٦٤).

وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وتأمّل ما في هذين الاسمين، وهما (الملك) (الحق)، من إبطال هذا الحسبان الذي ظنّه أعداؤه، إذ هو منافٍ لكمال ملكه، ولكونه الحق، إذ الملك الحقّ هو الذي يكون له الأمر والنهي فيتصرَّف في خلقه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملك والمالك، إذ المالك هو المتصرِّف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره، والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرِّف بفعله وأمره، فمن ظنَّ أنه خلق خلقه عبثاً لم يأمرهم ولم ينههم فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

فمن جحد شَرْعَ الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة، فقد طعن في ملك الله، ولم يقدره حقَّ قدره، وكذلك كونه تعالى إله الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها، فكما أنَّ ذاته الحقّ فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلّها حق، وجزاءه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق، فمن أنكر شيئاً من ذلك فما وصف الله بأنه الحقّ المطلق من كلّ وجه وبكل اعتبار، فكونه حقاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه، فكيف يظنّ بالملك الحقّ أن يخلقَ خلقه عبثاً، وأن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

قال الشافعي ـــ رحمه الله ـــ: مُهْمَلاً لا يُؤمر ولا ينهى.

وقال غيره: لا يُجزى بالخير والشر، ولا يثاب ولا يعاقب، والقولان

متلازمان، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأ ر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمّل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٣٨].

فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي؛ حتى خلقها فسوّى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها بشراً سوياً، فكيف يتركه سدى لا يسوقه[1].

وقَد أنكر سبحانه على مَن زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة، كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كلّه، وهو أنواع كثيرة.

منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

ومنها: أن يحب، ويعبد، ويشكر، ويُذْكَر، ويُطاع.

ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها: أن يدبّر الأمر، ويبرم القضاء، ويتصرّف في المملكة بأنواع التصرفات.

ومنها: أن يثيب، ويعاقب، فيُجازي المحسن بإحسانه والمسيء

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٦٥).

بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً، فيحمد على ذلك ويشكر.

ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه، ويكذب الكاذب فيهينه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوّعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي، فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما في الواقع.

ومنها: شهادة مخلوقاته كلّها بأنه وحده ربّها وفاطرها ومليكها، وأنه وحده إلهها ومعبودها.

ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير، ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلاً مختاراً.

ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كلّ منها في موضعه الذي يليق به، ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه، فتشهد حكمته الباهرة.

ومنها: أنه سبحانه يحبّ أن يجود، وينعم، ويعفو، ويغفر، ويسامح، ولا بد من لوازم ذلك خلقاً وشرعاً.

ومنها: أنه يحبّ أن يُثنى عليه، ويُمدح، ويُمَجَّد، ويُسَبَّح، ويُعَظَّم.

ومنها: كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته إلى غير ذلك من الحكم التي تضمّنها الخلق، فخلق مخلوقاته بسبب الحق ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق، وهو في نفسه حق، فمصدره حق، وغايته حق، وهو يتضمّن للحق، وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزّهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية، فقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ

﴿وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧].

وكيف يتوهَّم أنه عرفه من يقول إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له، ولا أمر لحكمة، ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة، لا لحكمة ولا لغاية مقصودة، وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده، بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات فهما مظهران بحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره، فإن الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزّه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه، فإنهم أثبتوا خلقاً وأمراً لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فبه ألبتة، وينهى عما فيه مصلحة، والجميع بالنسبة إليه سواء، ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه، وينهى عن جميع ما أمر به، ولا فرق بين هذا وهذا إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذّب من لم يعصه طرفة عين، بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين، بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول، وإلا فهو جائز عليه، وهذا من أقبح الظنّ وأسوئه بالرب سبحانه، وبتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجاب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزّهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أنَّ إثباتها تجسيم وتشبيه، ولا ينزّهونه عن هذا الظلم والجور، ويزعمون أنه عدل وحق، وأنَّ التوحيد عندهم لا يتمّ إلا به، كما لا يتمّ إلا بإنكار استوائه على عرشه، وعلوه فوق سمواته، وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتمّ

التـوحيـد عنـد هـذه الطـائفـة إلا بهـذا النفـي وذلـك الإثبـات، والله ولـي التوفيق[1].

* * *

(١) شفاء العليل ص (١٩٨).

القــدوس

القدوس: المنزّه من كلّ شر ونقص وعيب، كما قال أهل التفسير، هو الطاهر من كلّ عيب، المنزّه عما لا يليق به، وهذا قول أهل اللغة.

وأصل الكلمة من الطهارة والنزاهة، ومنه بيت المقدس لأنه مكان يُتطَهر فيه من الذنوب، ومَن أمَّه لا يريد إلا الصلاةَ فيه رجع من خطيئته كيومَ ولدته أمه. ومنه سُمِّيت الجنة حظيرة القدس لطهارتها من آفات الدنيا. ومنه سُمِّي جبريل روح القدس لأنه طاهر من كل عيب. ومنه قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فقيل: المعنى: ونقدّس أنفسنا لك، فعدي باللام، وهذا ليس بشيء، والصواب: أن المعنى نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ﴿ونقدس لك﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس ومما أضافَ إليك أهلُ الكفر بك.

قال: وقال بعضُهم: نعظّمك ونمجّدك، قاله أبو صالح.

وقال مجاهد: نعظّمك ونكبرك. انتهى[١].

وقال بعضُهم: ننزّهك عن السّوء فلا ننسبه إليك، واللام فيه على حدّها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢][٢] لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه

(١) تفسير ابن جرير (١/ ٢١١).

(٢) «ردف لكم»: لحقكم ووصل إليكم. وتمام الآية والتي قبلها: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل عسى أن يكون رَدِف لكم بعضُ الذي تستعجلون﴾ =

نفوسهم لأجله. قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: ﴿نسبح بحمدك﴾ فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء.

قال ميمون بن مهران: سبحان الله كلمة يُعظّم بها الرب ويُحاشى بها من السوء.

وقال ابن عباس: هي تنزيهٌ لله من كلّ سوء.

وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم: سبّحت في الأرض إذا تباعدت فيها، ومنه ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء: ٣٣] فمن أثنى على الله ونزّهه عن السوء فقد سبّحه، ويقال: سبّح الله وسبّح له، وقدّسه وقدّس له[١].

* * *

= [النمل: ٧١ ـ ٧٢].

(١) شفاء العليل ص (١٧٩).

السلام

لما كان «السلام» اسماً من أسماء الرب تبارك وتعالى، وهو اسم مصدر في الأصل[1] ـ كالكلام والعطاء ـ بمعنى السلامة، كان الربّ تعالى أحقَّ به من كلّ ما سواه؛ لأنَّه السَّالم من كلّ آفة وعيب ونقص وذمّ، فإنَّ له الكمالَ المطلقَ من جميع الوجوه، وكماله من لوازم ذاته، فلا يكون إلاَّ كذلك؛ والسلام يتضمّن سلامة أفعاله من العبث والظلم وخلاف الحكمة، وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين، وسلامة ذاته من كلِّ نقص وعيب، وسلامة أسمائه من كل ذم؛ فاسم «السلام» يتضمَّن إثبات جميع الكمالات له وسلب جميع النقائص عنه، وهذا معنى: «سبحان الله والحمد لله»، ويتضمَّن إفراده بالألوهية، وإفراده بالتعظيم؛ وهذا معنى: «لا إله إلاّ الله، والله أكبر»، فانتظم اسم «السلام» الباقيات الصالحات[2] التي يثنَى بها على الرب جل جلاله.

ومن بعض تفاصيل ذلك أنه الحيّ الذي سلمت حياته من الموت والسِّنة والنوم والتغيّر، القادر الذي سلمت قدرته من اللغوب والتعب والإعياء والعجز عما يريد، العليم الذي سلم علمه أن يعزب عنه مثقال

---

(١) اسم المصدر هو ما ساوى المصدر في الدلالة على معناه، وخالفه بخلوه من بعض ما في فعله، كالوضوء والكلام والسلام... ولم يشتق منه فعل.

(٢) من معاني الباقيات الصالحات في قوله تعالى: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ [الكهف: ٤٦] أنها الصلوات الخمس، وقيل: هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

ذرة أو يغيب عنه معلوم من المعلومات؛ وكذلك سائر صفاته على هذا. فرضاه سبحانه سلام أن ينازعه الغضب؛ وحلمه سلام أن ينازعه الانتقام؛ وإرادته سلام أن ينازعها الإكراه؛ وقدرته سلام أن ينازعها العجز؛ ومشيئته سلام أن ينازعها خلاف مقتضاها؛ وكلامه سلام أن يعرض له كذب أو ظلم، بل تمَّت كلماته صدقاً وعدلاً[1]؛ ووعده سلام أن يلحقه خُلْفٌ. وهو سلام أن يكون قبله شيء أو بعده شيء أو فوقه شيء أو دونه شيء، بل هو العالي على كل شيء، وفوق كلّ شيء، وقبل كلّ شيء، وبعد كلّ شيء، والمحيط بكلّ شيء؛ وعطاؤه ومنعه سلام أن يقع في غير موقعه؛ ومغفرته سلام أن يبالي بها أو يضيق بذنوب عباده أو تصدر عن عجز عن أخذ حقه كما تكون مغفرة الناس؛ ورحمته وإحسانه ورأفته وبره وجوده وموالاته لأوليائه وتحبُّبه إليهم وحنانه عليهم وذكره لهم وصلاته عليهم سلام أن يكون لحاجة منه إليهم أو تعزز بهم أو تكثّر بهم، وبالجملة فهو السلام من كلّ ما ينافي كلامه المقدس بوجه من الوجوه.

وأخطأ كلّ الخطأ من زعم أنه من أسماء السُّلوب؛ فإن السلب المحض لا يتضمّن كمالاً، بل اسم «السلام» متضمن للكمال السالم من كل ما يضادّه، وإذا لم تظلم هذا الاسم ووفيته معناه وجدته مستلزماً لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، وثبوت المعاد، وحدوث العالم، وثبوت القضاء والقَدَر، وعلوّ الربّ تعالى على خلقه، ورؤيته لأفعالهم، وسمعه لأصواتهم، واطلاعه على سرائرهم وعلانياتهم، وتفرّده بتدبيرهم، وتوحّده في كماله المقدس عن شريك بوجه من الوجوه، فهو

---

(١) مصداقه: ﴿وتمت كلمةُ ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ [الأنعام: ١١٥].

السلام الحق من كل وجه، كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر من كل وجه.

ولمّا كان سبحانه موصوفاً بأن له يَدين لم يكن فيهما شمال، بل كلتا يديه يمين مباركة، كذلك أسماؤه كلها حُسْنَى، وأفعاله كلها خير، وصفاته كلها كمال، وقد جعل سبحانه السلام تحية أوليائه في الدنيا، وتحيتهم يوم لقائه؛ ولما خلق آدم وكمل خلقه فاستوى قال الله له: «اذهبْ إلى أولئك النَّفر من الملائكة، فاستمعْ ما يحيّونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك»[1].

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

وقد اختلف في تسمية الجنّة بدار السّلام، فقيل: السلام هو الله، والجنة داره؛ وقيل: السلام هو السلامة، والجنة دار السلامة من كلّ آفة وعيب ونقص؛ وقيل: سُمِّيت «دار السلام» لأنَّ تحيتهم فيها سلام، ولا تنافي بين هذه المعاني كلها.

وأما قول المسلم: «السلام عليكم» فهو إخبار للمسلّم عليه بسلامته من غيلة المسلم وغشه ومكْرِهِ ومَكْروهٍ يناله منه، فيردّ الرادّ عليه مثل ذلك؛ أي فعل الله ذلك بك، وأحلَّه عليك[2].

والسلام: الذي سلم من العيوب والنقائص، وَوَصْفُه بالسلام أبلغ في

---

(١) رواه البخاري (٣٣٢٦) في أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير.

(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ١٩٣).

ذلك من وَصْفه بالسالم. ومن موجبات وصفه بذلك سلامة خلقه من ظلمه لهم، فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر، ومن التسمية به، ومن فعله، ومن نسبته إليه، فهو السلام من صفات النقص وأفعال النقص وأسماء النقص المسلم لخلقه من الظلم، ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام، والجنة بأنها دار السلام، وتحية أهلها السلام، وأثنى على أوليائه بالقول السلام، كل ذلك السالم من العيوب[1].

ويمكن أن نسأل: ما الحكمةُ في إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى وتجريد السلام عن الإضافة[2]؟

فجوابه أنَّ السلام لما كان اسماً من أسماء الله تعالى استغنى بذكره مطلقاً عن الإضافة إلى المسمى، وأما الرحمة والبركة فلو لم يضافا إلى الله لم يُعلم رحمةُ مَنْ ولا بركةُ مَنْ تطلب.

فلو قيل: عليكم ورحمة وبركة، لم يكن في هذا اللفظ إشعار بالراحم المبارك الذي تطلب الرحمة والبركة منه، فقيل: رحمة الله وبركاته.

وجواب ثان: أن السلامَ يُراد به قول المسلم: سلام عليكم، وهذا في الحقيقة مضاف إليه، ويُراد به حقيقة السلامة المطلوبة من السلام سبحانه وتعالى، وهذا يضاف إلى الله، فيضاف هذا المصدر إلى الطالب الذاكر تارة، وإلى المطلوب منه تارة، فأطلق ولم يضف.

وأما الرحمة والبركة فلا يضافان إلا إلى الله وحدَه، ولهذا لا يقال رحمتي وبركتي عليكم، ويقال: سلام مني عليكم، وسلام من فلان على

(١) شفاء العليل (ص ١٧٩).
(٢) في قول المُسَلِّم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلان، وسِرُّ ذلك أنَّ لفظ السلام اسم للجملة القولية بخلاف الرحمة والبركة فإنهما اسمان لمعناهما دون لفظهما، فتأمله فإنه بديع.

وجواب ثالث وهو أن الرحمة والبركة أتمّ من مجرد السلامة؛ فإن السلامة تبعيد عن الشر، وأما الرحمة والبركة فتحصيل للخير وإدامة له وتثبيت وتنمية، وهذا أكمل فإنه هو المقصود لذاته، والأول وسيلة إليه، ولهذا كان ما يحصل لأهل الجنة من النعيم أكمل من مجرد سلامتهم من النار، فأضيف إلى الرب تبارك وتعالى أكمل المعنيين وأتمهما لفظاً، وأطلق الآخر، وفهمت إضافته إليه معنى من العطف وقرينة الحال، فجاء اللفظ على أتمّ نظام وأحسن سياق.

وسؤال آخر: ما الحكمةُ في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة؟

فجوابه أنّ السلام إما مصدر محض فهو شيء واحد فلا معنى لجمعه، وإما اسم من أسماء الله فيستحيل أيضاً جمعه، فعلى التقديرين لا سبيل إلى جمعه.

وأما الرحمة فمصدر أيضاً بمعنى العطف والحنان فلا تجمع أيضاً، والتاء فيها بمنزلتها في الخلّة والمحبة والرقة، ليست للتحديد بمنزلتها في ضربة وتمرة، فكما لا يقال رقات ولا خلات ولا رأفات، لا يقال رحمات، وهنا دخول الجمع يشعر بالتحديد والتقييد بعدد، وإفراده يشعر بالمسمَّى مطلقاً من غير تحديد، فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنى من الجمع، وهذا بديع جداً أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول الجمع، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أعمّ وأتمّ معنى من أن يقال: فلله الحجج البوالغ.

وكان قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أتمّ معنى من أن يقال: وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أتمّ معنى من أن يقال حسنات.

وكذا قوله: ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١] ونظائره كثيرة جداً.

وأما البركة فإنها لما كان مُسمَّاها كثرة الخير، واستمراره شيئاً بعد شيء كلما انقضى منه فرد خلفه فرد آخر فهو خير مستمر، يتعاقب الأفراد على الدوام شيئاً بعد شيء؛ كان لفظ الجمع أولى بها لدلالته على المعنى المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] فأفرد الرحمة وجمع البركة، وكذلك في السلام في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته[(١)].

وتدبّر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام[(٢)]» فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً[(٣)].

وإذا عُرِف هذا فإطلاق (السلام) على الله تعالى اسماً من أسمائه هو أولى من هذا كله، وأحق بهذا الاسم من كلّ مسمى به؛ لسلامته سبحانه من كلّ عيب ونقص من كل وجه، فهو السلامُ الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة؛ فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٨١).

(٢) رواه مسلم (٥٩١) في المساجد، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة.

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٧).

يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحقّ من كلّ وجه وبكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كلّ ما يطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزّه به نفسه ونزّهه به رسوله، فهو السلامُ من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك، ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كلّ صفة سلاماً مما يضادّ كمالها، فحياته سلام من الموت ومن السِّنَة والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللُّغُوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة.

وكلماته سلام من الكذب والظّلم، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كلّ ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كلّ ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه، أو مشارك، أو معاون مظاهر، أو شافع عنده بدون إذنه.

وإلٰهيته سلام من مشارك له فيها؛ بل هو الله الذي لا إلٰه إلاّ هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذلّ أو مصانعة؛ كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلماً أو تشفياً أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحقّ عليه الحمد والثناء؛ كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة

لكان مناقضاً لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده[١] وحكمته وعزته؛ فهو سلام مما يتوهّم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته.

وقضاؤه وقدَره سلام من العبث والجور والظلم ومِن توهّم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة، وشرعُه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته؛ بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطى، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز.

واستواؤه وعلوُّه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله، أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كلّ ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه، واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما.

ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا[٢] سلام مما يضادّ علوّه، وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كلّ ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن

---

(١) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: من عدله.

(٢) جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟». رواه البخاري (١١٤٥) في التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل.

يصير تحت شيء أو محصوراً في شيء، تعالى الله ربنا عن كلّ ما يضاد كماله، وغناه وسمعه وبصره سلام من كلّ ما يتخيّله مشبه أو يتقوله معطل.

وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذلّ، كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر؛ كما قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] فلم ينفِ أن يكون له ولي مطلقاً، بل نفى أن يكون له ولي من الذل.

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه، أو تملّق له، أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها.

وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه، فإنه سلام عما يتخيّله مشبه، أو يتقوّله معطّل.

فتأمل كيف تضمّن اسمه (السلام) كل ما نزّه عنه تبارك وتعالى، وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمّنه من هذه الأسرار والمعاني(١)!

ونسأل: هل السلام مصدر أو اسم مصدر؟

فالجواب: أنّ السلام الذي هو التحية، اسم مصدر من سَلَّم، ومصدره الجاري عليه تسليم، كعلَّم تعليماً، وفهَّم تفهيماً، وكلَّم تكليماً، والسلام من سَلَّم كالكلام من كَلَّم.

فإن قيل: وما الفرق بين المصدر والاسم؟

قلنا: بينهما فرقان لفظي ومعنوي.

---

(١) راجع صحيح البخاري كتاب الاستئذان، (٦١)باب: السلام اسم من أسماء الله.

أما اللفظي: فإن المصدر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه كالإفعال من أفعَلَ، والتفعيل من فعّل، والانفعال من انْفَعَلَ، والتَّفَعْلُل من تَفَعْلَلَ وبابه. وأما السلام والكلام فليسا بجاريين على فعليهما، ولو جريا عليه لقيل تسليم وتكليم.

وأما الفرق المعنوي: فهو أنَّ المصدر دالّ على الحدث وفاعله، فإذا قلت: تكليم وتسليم وتعليم ونحو ذلك دلّ على الحدث ومن قام به، فيدلّ التسليم على السلام والمسلِّم، وكذلك التكليم والتعليم.

وأمّا اسم المصدر فإنما يدلُّ على الحدث وحده؛ فالسلام والكلام لا يدلّ لفظه على مسلّم ولا مكلّم بخلاف التكليم والتسليم.

وسِرُّ هذا الفرق أن المصدر في قولك: سلّم تسليماً، وكلّم تكليماً بمنزلة تكرار الفعل، فكأنك قلت: سلّم سلّم وتكلّم تكلَّم، والفعل لا يخلو عن فاعله أبداً[(١)].

وأما السؤال الرابع فهو: ما معنى السلام المطلوب عند التحية؟

ففيه قولان مشهوران، أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله عز وجل، ومعنى الكلام: نزلت بركة اسمه عليكم وحلّت عليكم ونحو هذا، واختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء لما يأتي في جواب السؤال الذي بعده.

واحتج أصحاب هذا القول بحجج، منها: ما ثبت في الصحيح أنهم كانوا يقولون في الصلاة: السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله فإنّ الله هو

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٣٥).

السلام، ولكن قولوا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[1].

فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا السلام على الله؛ لأنَّ السلام على المُسلَّم عليه دعاء له وطلب أن يسلم، والله تعالى هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، فيستحيل أن يسلم عليه، بل هو المسلم على عباده، كما سلّم عليهم في كتابه حيث يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨١].

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ [الصافات: ١٣٠].

وقال في يحيىٰ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ١٥].

وقال لنوح: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٧ ـ ٥٨] فقولاً منصوب على المصدر، وفعله ما تضمنه سلام من القول؛ لأن السلام قول.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه من حديث محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم، فرفعوا رؤوسهم؛ فإذا الجبّار جلّ جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلامٌ عليكم، ثم قرأ قوله:

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٦٤) والنسائي (٢/ ٢٤٠) وابن حبان في صحيحه (١٩٤٩) والطبراني في المعجم الكبير (٩٩٠٤) والطيالسي في مسنده (٢٤٩).

﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس: ٥٨] ثم يتوارى عنهم؛ فتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[1].

وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً: «أول من يسلّم عليه الحق يوم القيامة عمر»[2].

وقال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] فهذا تحيتهم يوم يلقونه تبارك وتعالى، ومحال أن تكونَ هذه تحية منهم له، فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه، وقد نُهُوا عن ذلك في الدنيا، وإنما هذا تحية منه لهم. والتحية هنا مضافة إلى المفعول فهي التحية التي يحيون بها؛ لا التحية التي يحيونه هم بها، ولولا قوله تعالى في سورة يّس: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس: ٥٨] لاحتمل أن تكونَ التحية لهم من الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ ﴾ [الرعد: ٢٣ ــ ٢٤].

ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم وهم في منازلهم من الجنة يدخلون مسلِّمين عليهم، وأما التحية المذكورة في قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] فتلك تحية لهم وقت اللقاء، كما يحيي

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٤) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٨ ــ ٢٠٩)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٢٧٤)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٣٩ ــ ٢٠٤٠)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٦٠ ــ ٢٦١)، والآجري في (التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة رقم ٤٨)، وابن بلبان في (المقاصد السنية ص ٣٧٤).

وفيه: أبو عاصم العباداني، منكر الحديث، والفضل الرقاشي ضعيف. فالحديث ضعيف كما في (ضعيف سنن ابن ماجه ص ١٤).

(٢) رواه ابن ماجه (١٠٤) في المقدمة، باب: في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ.

الحبيبُ حبيبه إذا لقيه، فماذا حُرِم المحجوبون عن ربهم يومئذ؟!

يكفـي الـذي غـاب عنـك غيبتـه ... فـذاك ذنـبٌ عقـابُـه فيـه

والمقصود أن الله تعالى يُطلَبُ منه السلام، فلا يمتنع في حقّه أن يسلم على عباده، ولا يطلب له فلذلك لا يُسلَّمُ عليه، وقوله ﷺ: «إن الله هو السلام»[1] صريحٌ في كون (السلام) اسماً من أسمائه.

قالوا: فإذا قال المسلم: سلام عليكم كان معناه اسم السلام عليكم.

ومن حججهم ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر أن رجلاً سلّم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار ثم تيمّم وردّ عليه، وقال: «إني كرهتُ أن أذكر الله إلاّ على طُهر»[2].

قالوا: ففي هذا الحديث بيان أن السلام ذِكْر الله، وإنّما يكون ذكراً إذا تضمن اسماً من أسمائه.

ومن حججهم أيضاً: أن الكفار من أهل الكتاب لا يُبْدَؤُون بالسلام فلا يقال لهم: سلام عليكم. ومعلوم أنه لا يُكره أن يقال لأحدهم سلّمك الله، وما ذاك إلاّ أن السلام اسم من أسماء الله، فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسم عليه. فهذه حجج كما ترى قوية ظاهرة.

القول الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعوّ به عند التحية. ومن حجة أصحاب هذا القول أنه يذكر بلا ألف ولام، بل يقول المسلم: سلام عليكم، ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه معرّفاً، كما يُطلق عليه سائر أسمائه الحسنى،

---

(١) رواه البخاري (٨٣١) في الأذان، باب: التشهد في الآخرة.

(٢) رواه أبو داود (١٧) في الطهارة، باب: أيردّ السلام وهو يبول؟ والنسائي (١/ ٣٥ ـ ٣٦) في الطهارة، باب: السلام على من يبول، وابن ماجه (٣٥٣) في الطهارة وسننها، باب: الرجل يسلّم عليه وهو يبول.

فيقال: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: ٢٣] فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معيَّن فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده، بخلاف المعرَّف فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماؤه الحسنى.

ومن حججهم أيضاً أن عطف الرحمة والبركة عليه في قوله سلام عليكم ورحمة الله وبركاته يدلُّ على أنّ المراد به المصدر، ولهذا عطف عليه مصدرين مثله.

ومن حججهم أيضاً أنه لو كان السلام هنا اسماً من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيداً، ويكون المعنى: بركة اسم السلام عليكم، فإن الاسم نفسه ليس عليهم. ولو قلت: اسم الله عليك؛ كان معناه: بركة هذا الاسم، ونحو ذلك من التقدير. ومعلوم أنَّ هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه.

ومن حججهم أيضاً أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء، كما يأتي في جواب السؤال الذي بعد هذا، ولهذا كان السلام أماناً لتضمّنه معنى السلامة، وأمن كل واحد من المسلم والرادّ عليه من صاحبه.

قالوا: فهذا كلّه يدلُّ على أنَّ السلام مصدر بمعنى السلامة، وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه، والتاء تفيد التحديد.

وفصل الخطاب في هذه المسألة أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكلٌّ منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما نبيّن ذلك بقاعدة؛ وهي أن مَن دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كلّ مطلوب، ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب، المناسب لحصوله؛ حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسّل إليه به، فإذا قال: ربّ اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، فقد سأله أمرين، وتوسل إليه

باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه. وكذلك قول النبي ﷺ لعائشة وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحبُّ العفو فاعفُ عني»[١].

وكذلك قوله للصِّديق وقد سأله أن يعلمه دعاءً يدعو به: «اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنّك أنت الغفور الرحيم»[٢].

وهذا كثير جداً فلا نطول بإيراد شواهده.

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام؛ الذي يطلب منه السلامة، فتضمّن لفظ السلام معنيين: أحدهما ذكر الله كما في حديث ابن عمر، والثاني طلب السلامة وهو مقصود المسلم، فقد تضمَّن (سلام عليكم) اسماً من أسماء الله وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة.

وقريب من هذا ما روي عن بعض السلف أنه قال في (آمين): إنه اسم من أسماء الله تعالى[٣]، وأنكر كثيرٌ من الناس هذا القول، وقالوا: ليس في أسمائه (آمين)، ولم يفهموا معنى كلامه؛ فإنه إنّما أراد أن هذه الكلمة تتضمّن اسمه تبارك وتعالى، فإن معناها استجب وأعطِ ما سألناك،

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣) في الدعوات، باب (٥٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٥٠) في الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية، وأحمد (٦/ ١٧١ و١٨٢ و٢٠٨).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٦) في الدعوات، باب: الدعاء في الصلاة، ومسلم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر.

(٣) عن مجاهد أنه قال: آمين: اسم من أسماء الله تعالى (إعراب القرآن للزجاج ١/ ١٤٤) وانظر: التبيان للعكبري (١/ ٥).

فهي متضمّنة لاسمه مع دلالتها على الطلب، وهذا التضمّن في (سلام عليكم) أظهر؛ لأنَّ السلام من أسمائه تعالى، فهذا كشف سِرّ المسألة[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٤٠).

الجبّار، المتكبر

أما الجبر فيرجع في اللغة إلى ثلاثة أصول:

أحدها: أن يغنى الرجل من فقر، أو يجبر عظمه من كسر، وهذا من الإصلاح، وهذا الأصل يستعمل لازماً ومتعدياً، يقول: جبرت العظم وَجَبَر. وقد جمع العجَّاج بينهما في قوله:

قد جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فَجَبَرْ[1]

الأصل الثاني: الإكراه والقهر، وأكثر ما يستعمل هذا على أفعل، يقال: أجبرته على كذا إذا أكرهته عليه، ولا يكاد يجيء جبرته عليه إلا قليلاً.

والأصل الثالث: من العز والامتناع، ومنه نخلة جبارة. قال الجوهري: والجبار من النخل ما طال وفات اليد، قال الأعشى:

طَريقٌ وَجَبَّارٌ رِواءٌ أُصُولُه — عليه أَبابِيلٌ مِن الطَّيْرِ تَنْعَبُ[2]

وقال الأخفش في قوله تعالى ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]

(١) لسان العرب مادة (جبر)، وديوان العجاج (٢/١) من قصيدة قالها في مدح عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر.

(٢) من قصيدة مطلعها:

تصابيت أم بانت بعقلك زينب

الديوان (١٧٧) اللسان: جبر.

قال: أراد الطول والقوة والعظم. ذهب في هذا إلى الجبار من النخل، وهو الطويل الذي فات الأيدي[1].

ويقال: رجل جبار إذا كان طويلاً عظيماً قوياً، تشبيهاً بالجبار من النخل.

قال قتادة: كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليستْ لغيرهم[2].

وقيل الجبار ــ هاهنا ــ من: جَبَره على الأمر إذا أكرهه عليه. قال الأزهري: وهي لغة معروفة، وكثير من الحجازيين يقولونها.

وكان الشافعي رحمه الله يقول: جبره السلطان.

ويجوز أن يكون الجبار من أجبره على الأمر: إذا أكرهه.

قال الفراء: لم أسمع فعّالاً من أفعل إلا في حرفين وهما جبّار من أجبر، ودرَّاك من أدرك[3].

وهذا اختيار الزجاج، قال: الجبَّار من الناس العاتي الذي يَجْبُر الناسَ على ما يريد، وأما الجبَّار من أسماء الرب تعالى فقد فسره بأنه الذي يجبر الكسير ويغني الفقير والرب سبحانه كذلك[4].

ولكن ليس هذا معنى اسمه الجبَّار؛ ولهذا قرنه باسمه المتكبر، وإنما هو الجبروت.

---

(١) في لسان العرب أن هذا من قول اللحياني، وليس من قول الأخفش، وقد راجعنا «معاني القرآن» للأخفش، فلم نجده فيه.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦/ ١٧٤).

(٣) لسان العرب مادة (جبر). والجامع لأحكام القرآن (٦/ ١٢٦).

(٤) قال الزجاج: والله عز وجل الجبار العزيز وهو الممتنع من أن يذل. والله عز وجل يأمر بما أراد، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه (معاني القرآن ٢/ ١٦٣).

وكان النبي ﷺ يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»[1].

فالجبَّار: اسم من أسماء التعظيم كالمتكبر والملك والعظيم والقهار.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] هو العظيم. وجبروت الله: عظمته[2].

والجبّار: من أسماء الملوك، والجبر: الملك، والجبابرة: الملوك، قال الشاعر:

وانْعَمْ صباحاً أيُّها الْجَبْرُ[3]

أي: أيها الملك.

وقال السُّدي: هو الذي يجبر الناس ويقهرهم على ما يريد، وعلى هذا فالجبّار معناه القهار.

وقال محمد بن كعب: إنما سُمِّي الجبار لأنه جبر الخلقَ على ما أراد[4]. والخلق أدقّ شأناً من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته.

قال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد.

وقال ابنُ الأنباري: الجبار في صفة الرب سبحانه الذي لا يُنال.

ومنه قولهم: نخلة جبّارة إذا فاتت يَدَ المتناول، فالجبار في صفة

---

(١) رواه أبو داود (٨٧٣) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، والنسائي (٢/ ١٩١) في التطبيق، باب: نوع آخر من الذكر في الركوع، وأحمد (٥/ ٣٨٨، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠١).

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٤٧).

(٣) لسان العرب مادة (جبر)، والشاعر هو ابن أحمر الباهلي. وقال ابن جني في الخصائص (٢/ ٢١): وإنما سُمِّي بذلك ـ أظنّ ـ لأنه يجبر بجوده.

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٦٧).

الرب سبحانه ترجع إلى ثلاثة معان: الملك والقهر والعلو، فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة، ولهذا جعل سبحانه اسمه الجبار مقروناً بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين.

وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة، وهي: الخالق البارىء المصور، فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارىء المصوّر تفصيل لمعنى اسم الخالق، فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى.

وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذمّ له ونقص، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: مسلَّط تقهرهم وتكرههم على الإيمان.

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «يحشر الجبَّارون والمتكبّرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ يطؤهم الناس[١]»[٢].

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢) بنحوه في صفة القيامة، باب (٤٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) شفاء العليل ص (١٢٠).

البصير

إذا شهد معنى اسمه (البصير) جل جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس الظلماء، ويرى تفاصيلَ خَلْق الذرّة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها، ويرى مدَّ البعوضة جناحَها في ظلمة الليل، وأعطى هذا المشهد حقّه من العبودية بحرس حركاتها وسكناتها، وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء.

فالله البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصماءِ في الليلة الظلماءِ، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السموات السبع[١].

* * *

(١) طريق الهجرتين ص (٦٧).

العـزيــز

العزيز الذي له العِزَّةُ التامة. ومن تمام عزّته براءتهُ عن كل سوء وشر وعيب؛ فإنَّ ذلك يُنافي العزّة التامة[1].

* * *

(١) شفاء العليل ص (١٨٠).

وقال الحليمي: العزيز: الذي لا يوصل إليه، ولا يمكن إدخال مكروه عليه؛ فإنَّ العزيز في لسان العرب من العزّة وهي الصلابة، فإذا قيل: الله العزيز فإنما يُراد به الاعتراف له بالقدم الذي لا يتهيَّأ معه تغيّره عمّا لم يزل عليه من القدرة والقوّة، وذلك عائد إلى تنزيهه عمّا يجوز على المصنوعين لأعراضهم بالحدوث في أنفسهم للحوادث أن تصيبهم وتغيرهم.

وقال الخطابي: العزيز هو المنيع الذي لا يُغْلَب، والعزّ قد يكون بمعنى الغلبة، يُقال منه عزّ يعزّ بضم العين من يعزّ. وقد يكون بمعنى الشدّة والقوة، يقال منه عزّ يعز بفتح العين. وقد يكون بمعنى نفاسة القدر، يُقال منه عزّ الشيء يعز بكسر العين، فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء، وأنه لا مثل له. (الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٧٠ ــ ٧١).

الحكيم العليم العلّام

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات: ٣٠] متضمّن لإثبات صفة الحكمة والعلم، اللذين هُما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خَلَقه سبحانه صادرٌ عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمّنان لجميع صفات الكمال، فالعلمُ يتضمّن الحياة ولوازم كمالها من: القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلمُ التّام.

والحكمةُ تتضمّن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمّن إرسال الرسل، وإثبات الثواب والعقاب.

كلّ هذا العلم من اسمه الحكيم، كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خَلَق الْخَلْقَ عبثاً وسُدى وباطلاً، فحينئذ صفة حكمته تتضمّن الشرع والقدر والثواب والعقاب، ولهذا كان أصحّ القولين أن المعاد يُعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدلّ العقل على إثباته.

ومَن تأمّل طريقةَ القرآن وجدها دالّة على ذلك، وأنه سبحانه يضربُ لهم الأمثال المعقولة التي تدلُّ على إمكان المعاد تارةً ووقوعه أخرى، فيذكر أدلّة القدرة الدالّة على إمكان المعاد وأدلّة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومَن تأمّل أدلّة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها، كافية شافية، موصلة إلى المطلوب بسرعة، متضمّنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس، وفيها البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر، ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة فإنها على العكس من ذلك، والمقصودُ أنَّ صدورَ الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته.

واختصت هذه القصة[1] بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولاية على غير العادة المعروفة. فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمّن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة[2].

فأما المرتبة الأولى من علم الله عز وجل فهي العلم السابق، فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليه جميعُ الصحابة ومن تبعهم من الأمة وخالفهم مجوس الأمة، وكتابته السابقة تدلّ على علمه بها قبل كونها، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

قال مجاهد: علم من إبليس المعصية وخلقه لها.

---

(١) قصة سيدنا إبراهيم كما وردت في قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ [الذاريات: ٢٤].

(٢) الرسالة التبوكية ص (٦٧).

وقال قتادة: كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة.

وقال ابن مسعود: أعلم ما لا تعلمون من إبليس.

وقال مجاهد أيضاً: علم من إبليس أنه لا يسجد لآدم[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي المسند من حديث لقيط بن عامر، عن النبي ﷺ، أنه قال: يا رسول الله ما عندك من علم الغيب؟ فقال: «ضنَّ ربُّك بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله» وأشار بيده، فقلت: ما هن؟ قال: «علم المنية، قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم المني حين يكونُ في الرحم قد علمه ولا تعلمونه. وعلم ما في غد، قد علم ما أنت طاعم ولا تعلمه، وعلم يوم الغيث يشرف عليكم مشفقين، فيظلّ يضحكُ قد علم أنَّ غوثَكم إلى قريب، وعلم يوم الساعة»[2].

وفي الحديث المتفق على صحته: «ما منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة، إلاّ وقد علم مكانها من الجنة أو النار»[3].

وقال البزَّار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي، ثنا عبيد الله بن موسىٰ، ثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أحسبه قال: «يُؤتى بالهالك في الفترة والمعتوه والمولود، فيقول الهالك

---

(١) ذكر ابنُ جرير هذه الأقوال في تفسيره (١/ ٢١٢ ـ ٢١٣).
(٢) رواه أحمد (٤/ ١٣).
(٣) رواه البخاري (١٣٦٢) في الجنائز، باب: موعظة المحدِّث عند القبر، ومسلم (٢٦٤٧) في القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.

في الفترة: لم يأتني كتاب ولا رسول، ويقول المعتوه: أي ربِّ لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً، ويقول المولود: أي رب لم أدرك العمل، قال: ويمسك عنها من كان في علم الله شقياً أن لو أدرك العمل، فيقول تبارك وتعالى: إيَّاي عصيتم فكيف رسلي بالغيب»[1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من مولودٍ يُولَد إلا على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ جَمْعاء، هل تحِسُّون فيها من جَدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟» قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت منهم وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[2].

ومعنى الحديث: الله أعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا. وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه.

وقال أيضاً: على علم قد سبق عنده.

وقال أيضاً: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب.

وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه.

وقال أبو إسحاق: أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه. وهذا الذي ذكره جمهورُ المفسرين.

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٧٦)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد ٧/ ٢١٦): رواه البزار، وفيه عطية وهو ضعيف.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٩) في القدر، باب: الله أعلم بما كانوا عاملين، ومسلم (٢٦٥٨) في القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة.

«جمعاء»: مجتمعة الأعضاء ليس فيها نقص. «جدعاء»: مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء.

وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره. قال: وقيل على ما سبق في علمه أنّه ضالٌّ قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي، قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي.

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره قولين في الآية هذا أحدهما، قال المهدوي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه. قال: وقيل على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول يكون (على علم) حال من الفاعل، والمعنى: أضله الله عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه، وعلى الثاني حال من المفعول؛ أي أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول فالمعنى: أضله الله عالماً به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال وليسَ أهلاً أن يهدى، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محلّه وعند من لا يستحقه، والربُّ تعالى حكيم إنما يضعُ الأشياء في محالها اللائقة بها، فانتظمت الآيةُ على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال، وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور ووضع الشيء في مواضعه، وإعطاء الخير من يستحقه ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضلّه على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه، وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر كما قال:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا

ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦ ـ ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: ١٠٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: ٥٩].

وقد أخبر سبحانه أنه يفعل ذلك عقوبةً لأرباب هذه الجرائم، وهذا إضلال ثانٍ بعد الإضلال الأول، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾(١) [الأنعام: ١٠٩ ـ ١١٠].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

---

(١) «يعمهون»: يعمون عن الرشد، أو: يتحيّرون.

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: إن تركتم الاستجابة لله ورسوله عاقبكم بأن يحول بينكم وبين قلوبكم فلا تقدرون على الاستجابة بعد ذلك.

ويشبه هذا إن لم يكن بعينه قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ [يونس: ١٣] الآية. وفي موضع آخر: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال: **أحدها**: قال أبو إسحاق[(١)]: هذا إخبار عن قوم لا يؤمِنون، كما قال عن نوح: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦] واحتج على هذا بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١] قال: وهذا يدلُّ على أنه قد طبعَ على قلوبهم.

وقال ابن عباس: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً، وأقروا باللسان، وأضمروا التكذيب.

وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم.

قلت: وهو نظير قوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٦١ ــ ٣٦٢).

وقال آخرون: لمَّا جاءتهم رسلهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعاينتها بما كذبوا به من قبل رؤيتها ومعاينتها، فمنعهم تكذيبهم السابق بالحقّ لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك، وهذه عقوبةُ مَن رَدَّ الحق أو أعرض عنه فلم يقبله، فإنه يُصْرَف عنه، ويُحال بينه وبينه، ويقلب قلبه عنه، فهذا إضلالُ العقوبة وهو من عدل الرب في عبده.

وأما الإضلال السابق الذي ضلّ به عن قبوله أولاً والاهتداء به فهو إضلال ناشىء عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدى، ولا يليق به، وأنَّ محله غير قابل له، فالله أعلمُ حيث يضعُ هداه وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته، فهو أعلم حيث يجعلها أصلاً وميراثاً، وكما أنه ليس كل محلّ أهلاً لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق، فليس كلّ محل أهلاً لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلى الرؤساء والسادة بالأتباع والموالي والضعفاء، فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعيف أنفه وأنف أن يسلم عليه وقال: هذا يمنّ الله عليه بالهدى والسعادة دوني، قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبُكم مثل قلوبهم تعرفون قدر نعمتي وتشكرونني عليها، وتذكرونني بها، وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبّونني كحبهم؛ لمننت عليكم كما مننتُ عليهم، ولكن لِمِنَنِي ونعمي محالّ لا تليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها، ولهذا يقرنُ كثيراً بين

التخصيص والعلم كقوله هاهنا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝﴾ [القصص: ٦٨ ـ ٦٩] أي سبحانه المتفرّد بالخلق والاختيار مما خلق وهو الاصطفاء والاجتباء، ولهذا كان الوقفُ التام عند قوله: ﴿ويختار﴾[1].

ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم، وأن ذلك ليس إليهم بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحالّ الاختيار ومواضعه، لا من قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسلَ باختيارهم، وأنّ البشر ليس لهم أن يختاروا على الله، بل هو الذي يخلقُ ما يشاء ويختار، ثم نفى سبحانه أن تكونَ لهم الخيرةُ كما ليس لهم الخلق، ومن زعم أنّ[2] (ما) مفعول يختار

(١) اختيار ابن القيم وتأكيده على أن الوقف على (يختار)، والابتداء بـ(ما) على أنها نافية، هو مذهب أهل السنة، أما كونها موصولة متصلة بـ يختار فهو مذهب المعتزلة. انظر: زاد المعاد لابن القيم (١/ ١٧ ـ ١٨) شفاء العليل (٣٢). مشكل إعراب القرآن لمكي (٢/ ١٧٩) الكشاف (٣/ ١٧٧)، البحر المحيط (٧/ ٢٩)، إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري (٢/ ٨٢٣) منار الهدى للأشموني (١٣، ٢١٢ ـ ٢١٣) القرطبي (١٣/ ٣٠٥)، الطبري (٢٠/ ٩٩ ـ ١٠٠) إعراب القرآن للزجاج (٤/ ١٥١ ـ ١٥٥) التبيان للعكبري (٢/ ١٧٩).

(٢) أنكر الطبري أن تكون (ما) نافية وتعقبه مكي بن أبي طالب في مشكله وصرح بأن ما قاله الطبري ليس بحسن في الإعراب، وهو بعيد في المعنى والاعتقاد. =

فقد غلط؛ إذ لو كان هذا هو المرادُ لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان ولأصبح المعنى: ما كان لهم الخيرة فيه، وحذف العائد فإن العائد هاهنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله، فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل فلا يجوز حذفه، وكذلك لم يفهم معنى الآية من قال: إن الاختيار هاهنا هو الإرادة كما يقوله المتكلمون إنه سبحانه فاعل بالاختيار، فإنّ هذا الاصطلاح حادثٌ منهم لا يحمل عليه كلام الله، بل لفظُ الاختيار في القرآن مطابقٌ لمعناه في اللغة، وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره، وهذا أمرٌ أخصّ من مطلق الإرادة والمشيئة.

قال في الصحاح: الخِيرَةُ: الاسم من قولك: خار الله لك في هذا الأمر، والخيرة أيضاً من قولك: اختاره الله، يقال: محمد خِيَرَةُ الله من خلقه، وخِيْرَةُ الله أيضاً بالتسكين، والاختيار: الاصطفاء، وكذلك التَّخَيُّر، والاستخارة: طلب الخيرة، يقال: استَخِرِ اللَّهَ يَخِرْ لك، وخَيَّرتُه بين الشيئين فوّضت إليه الاختيار. انتهى(١).

فهذا هو الاختيار في اللغة، وهو أخص مما اصطلح عليه أهلُ الكلام، ومن هذا قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي اختار منهم.

وبهذا يحصل جوابُ السؤال الذي تورده القدريةُ، يقولون في الكفر

= (مشكل إعراب القرآن ٣/ ١٦٣، الطبري ٢٠/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(١) الصحاح (خَيَر).

والمعاصي: هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره؟ فإن قلتم باختياره فكلٌ مختار مرضي مصطفى محبوب، فتكون مرضية محبوبة له، وإن قلتم بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره، وجوابه أن يقال ما تعنون بالاختيار العام في اصطلاح المتكلمين أهو المشيئة والإرادة، أم تعنون به الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب؟ وإن أردتم بالاختيار الأول فهي واقعة باختياره بهذا الاعتبار، لكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها لما في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة، بل يقال: واقعة بمشيئته وقدرته.

وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى، وإن كانت واقعة بمشيئته.

فإن قيل: فهل تقولون أنها واقعة بإرادته أم لا تطلقون ذلك؟ قيل: لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة كونية شاملة جميع المخلوقات، كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٦].

وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ [الإسراء: ١٦].

وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤] ونظائر ذلك.

وإرادة دينية أمرية لا يجب وقوع مرادها كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٧] فهي مرادة بالمعنى الأول غير مرادة بالمعنى الثاني.

وكذلك إن قيل: هل هي واقعة بإذنه أم لا؟ والإذن أيضاً نوعان: كوني كقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وديني أمري كقوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ﴾ [يونس: ٥٩].

وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُـلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩].

ولفظ الاختيار مشتقّ من الخير المخالف للشر، ولما كان الأصل في الحي أنه يريد ما ينفعه وما هو خير، سُمِّيت الإرادة اختياراً، وهذا يتضمّن أنَّ الإرادة لا ترجّح نوعاً على نوع إلا لمرجّح رجّح ذلك النوع عند الفاعل.

والمقصود أنه يذكر العلم عند التخصيصات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِـلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٢﴾ [الدخان: ٣٢] لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال[1]، أي اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم وما يقتضي اختيارهم من قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم، وذكر علمه الدَّالّ على مواضع حكمته واختياره، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء: ٥١].

وأصح الأقوال في الآية أن المعنى من قبل نزول التوراة؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقال: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء: ٥].

ثم قال: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١] ولهذا قطعت (قبل) عن الإضافة وبنيت؛ لأنّ المضافَ منوي معلوم وإن كان غير مذكور في اللفظ، وذكر سبحانه هؤلاء الثلاثة وهم أئمة الرسل وأكرم الخلق عليه: محمد وإبراهيم وموسى، وقد قيل: ﴿من قبل﴾ أي في حال

---

(١) الصواب: أن شبه الجملة (على علم) في موضع نصب على الحال.

صغره قبل البلوغ، وليس في اللفظ ما يدلُّ على هذا، والسياق إنما يقتضي من قبل ما ذكر.

وقيل: المعنى بقوله ﴿من قبل﴾ أي في سابق علمنا، وليس في الآية أيضاً ما يدلُّ على ذلك، ولا هو أمرٌ مختص بإبراهيم، بل كلّ مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه.

والمقصود من قوله: ﴿وكُنَّا بِهِ عالمين﴾ قال البغوي: إنّه أهل للهداية والنبوة[1].

وقال أبو الفرج: أي عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد[2].

وقال صاحب الكشاف: المعنى علمه به أنه علم منه أحوالاً بديعة، وأسراراً عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدها، حتى أهَّله لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك في خَيِّرٍ من الناس: أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف[3].

وهذا كقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الدخان: ٣٢].

ونظيره قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: ٣٣ ــ ٣٤].

وقريب منه قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ [الأنبياء: ٨١] حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي.

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٢٤٧).

(٢) زاد المسير (٥/ ٣٥٧).

(٣) الكشاف (٣/ ١٢١).

وهو سبحانه كما هو العليم الحكيم في اختياره من يختاره من خلقه وإضلاله من يضله منهم؛ فهو العليم الحكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميدة والغايات العظيمة، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

بيَّن سبحانه أنّ ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم، وإما لنفور الطبع، فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه، فهذه الآية تضمّنت الحضّ على التزام أمر الله وإن شقّ على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس.

وفي حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدُرْهُ لي ويسّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شرّاً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدُرْ لي الخيرَ حيث كان، ثم رضِّني به»(١).

ولما كان العبدُ يحتاجُ في فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده إلى علم ما فيه من المصلحة وقدرته عليه وتيسره له، وليس له من نفسه شيء من

(١) رواه البخاري (٦٣٨٢) في الدعوات، باب: الدعاء عند الاستخارة، والترمذي (٤٨٠) في الوتر، باب: ما جاء في صلاة الاستخارة، وابن ماجه (١٣٨٣) في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة الاستخارة، وأحمد (٣/ ٣٤٤).

ذلك، بل علمه ممن علَّم الإنسانَ ما لم يعلم، وقدرته منه، فإن لم يقدره عليه، وإلاّ فهو عاجز، وتيسيره منه فإن لم ييسره عليه وإلا فهو متعسّر عليه بعد إقداره؛ أرشده النبي ﷺ إلى محض العبودية؛ وهو جلب الخيرة من العالِم بعواقب الأمور وتفاصيلها وخيرها وشرّها، وطلب القدرة منه فإنه إن لم يقدره وإلا فهو عاجز وطلب فضله منه، فإن لم ييسره له ويهيئه له وإلا فهو متعذر عليه، ثم إذا اختاره له بعلمه، وأعانه عليه بقدرته، ويسَّره له من فضله فهو يحتاج إلى أن يبقيه عليه ويديمه بالبركة التي يضعها فيه، والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قدر زائد على إقداره عليه وتيسيره له، ثم إذا فعل ذلك كله فهو محتاج إلى أن يرضيه به، فإنه قد يهيىء له ما يكرهه، فيظل ساخطاً ويكون قد خار الله له فيه.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ: «مِن سعادة ابن آدم استخارته الله تعالى، ومِن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله. ومِن شقوة ابن آدم تركه استخارةَ الله عز وجل، ومِن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله»(١).

فالمقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبله والرضا بعده، فمِن توفيق الله لعبده وإسعاده إيّاه أن يختار قبل وقوعه ويرضى بعد وقوعه، ومن خذلانه

---

(١) رواه الترمذي (٢١٥١) في القدر، باب: ما جاء في الرضا بالقضاء، وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، ويُقال له أيضاً حماد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم المدني، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث، وأحمد (١/ ١٦٨) وقال ابن حجر: وسنده حسن، ورواه الحاكم (١/ ٥١٨) وصححه، ووافقه الذهبي. وذكره الذهبي في (ميزان الاعتدال ٣/ ٥٣١) في ترجمة محمد بن أبي حميد، وقال: ضعَّفوه، وانظر: (فيض القدير ٦/ ١٥).

له ألا يستخيره قبل وقوعه، ولا يرضى به بعد وقوعه.

وقال عمر بن الخطاب: لا أبالي أصبحتُ على ما أحبّ أو على ما أكره؛ لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره.

وقال الحسن: لا تكرهوا النقمات الواقعة، والبلايا الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمرٍ تؤثره فيه عطبُك.

ومما يناسب هذا قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧].

بيَّن سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صدّ المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبيَّن لهم أنَّ مطلوبهم يحصل بعد هذا، فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١] فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر، وظهور الإسلام، وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلّم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرةً لا يخافون، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت، وظهر لكلّ أحد بغي المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمداً وأصحابه أولو الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلاّ العدوان والعناد؛ فإنَّ البيت الحرام لم يصدّ عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحقّقت العربُ عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي

علمها الله ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سمّاه فتحاً، وسُئِل النبي ﷺ: أفتح هو؟ قال: «نعم»[1].

ويشبه هذا قول يوسف الصديق: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: ١٠٠] فأخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس[2].

والحكيم: الذي لا يضع الشيءَ إلا في موضعه، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كلّ ما خلقه، وفي كلّ ما وضعه في محلّه وهيأه له، وهو سبحانه له الخلق والأمر، فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا تعارض أمران رجّح أحسنهما وأصلحهما، وليس في الشريعة أمرٌ يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه، ولا نهي عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده.

فإن قلتَ: فإذا كان وجوده خيراً من عدمه، فكيف لا يشاء وجوده؟ فإذا كان عدمه خيراً من وجوده فكيف يشاء وجوده؟ فالمشيئة العامة تنقض عليك هذه القاعدة الكلية.

قلت: لا تنقضها لأنَّ وجوده وإن كان خيراً من عدمه؛ فقد يستلزم وجوده فوات محبوب له هو أحب إليه من وقوع هذا المأمور من هذا

---

(١) رواه عبد بن حميد عن عامر الشعبي أن رجلاً سأل النبي ﷺ يوم الحديبية: أفتح هذا؟ فقال النبي ﷺ: «نعم عظيم». (الدرّ المنثور ٧/ ٥١٠).

(٢) شفاء العليل ص (٢٩).

المعنى، وعدم المنهي وإن كان خيراً من وجوده، فقد يكون وجوده وسيلة وسبباً إلى ما هو أحبّ إليه من عدمه.

والربُّ سبحانه إذا أمر بشيء فقد أحبّه ورضيه وأراده وبيّنه، وهو لا يحبّ شيئاً إلا ووجودُه خيرٌ من عدمه، وما نهى عنه فقد أبغضه وكرهه، وهو لا يبغض شيئاً إلا وعدمه خير من وجوده، هذا بالنظر إلى ذات هذا وهذا، وأما باعتبار إفضائه إلى ما يحب ويكره فله حكم آخر.

ولهذا أمر سبحانه عباده أن يأخذوا بأحسن ما أنزل إليهم[1]، فالأحسن هو المأمور به، وهو خير من المنهي عنه، وإذا كانت هذه سُنَّته في أمره وشرعه، فهكذا سنته في خلقه وقضائه وقدره، فما أراد أن يخلقه أو يفعله كان أن يخلقه ويفعله خيراً من ألا يخلقه ولا يفعله، وبالعكس، وما كان عدمه خيراً من وجوده فوجوده شر، وهو لا يفعله بل هو منزّه عنه، والشر ليس إليه.

فإن قلت: فلم خلقه وهو شر؟ قلت: خلْقه له وفعله خير لا شرّ، فإنّ الخلق والفعل قائم به سبحانه، والشر يستحيل قيامه به واتّصافه به، وما كان في المخلوق من شرّ فلعدم إضافته ونسبته إليه، والفعل والخلق يضاف إليه فكان خيراً، والذي شاءه كله خير، والذي لم يشأ وجوده بقي على العدم الأصلي وهو الشر، فإنَّ الشّرّ كلّه عدم، وإن سببه جهل وهو عدم العلم، أو ظلم وهو عدم العدل، وما يترتّب على ذلك من الآلام فهو من عدم استعداد المحل وقبوله لأسباب الخيرات واللذات.

فإن قلت: كثير من الناس يطلق القول بأنَّ الخير كلّه من الوجود

---

(١) في قوله عز وجل: ﴿واتّبعُوا أحسَنَ ما أنزل إليكم من ربكم﴾ [الزمر: ٥٥].

ولوازمه، والشّرّ كله من العدم ولوازمه، والوجود خير، والشر المحض لا يكون إلاّ عدماً.

قلت: هذا اللفظ فيه إجمال، فإن أريدَ به أن كل ما خلقه الله وأوجده ففيه الخير ووجوده خير من عدمه، وما لم يخلقه ولم يشأه فهو المعدوم الباقي على عدمه ولا خير فيه، إذ لو كان فيه خير لفعله، فإنه بيده الخير، فهذا صحيح. فالشرّ العدمي هو عدم الخير، وإن أريد أنَّ كلّ ما يلزم الوجود فهو خيرٌ، وكلّ ما يلزم العدم فهو شرّ فليس بصحيح؛ فإنَّ الوجود قد يلزمه شر مرجوح، والعدم قد يلزمه خير راجح.

مثال الأول النار والمطر والحر والبرد والثلج ووجود الحيوانات، فإن هذا موجود ويلزمه شرّ جزئي مغمور بالنسبة إلى ما في وجود ذلك من الخير، وكذلك المأمور به قد يلزمه من الألم والمشقة ما هو شر جزئي مغمور بالنسبة إلى ما فيه من الخير.

وتحقيقُ الأمر أنَّ الشّرّ نوعان: شر محض حقيقي من كلٍّ وجهٍ، وشرّ نسبي إضافي من وجه دون وجه.

فالأول لا يدخل في الوجود؛ إذ لو دخل في الوجود لم يكن شراً محضاً.

والثاني هو الذي يدخل في الوجود. فالأمور التي يقال هي شرور، إما أن تكون أموراً عدمية أو أموراً وجودية، فإن كانت عدمية فإنها إما أن تكون عدماً لأمور ضرورية للشيء في وجوده، أو ضرورية له في دوام وجوده وبقائه، أو ضرورية له في كماله. وإما أن تكون غير ضرورية له في وجوده ولا بقائه ولا كماله وإن كان وجودها خيراً من عدمها. فهذه أربعة أقسام، فالأول كالإحسان والحركة والنفس للحيوان، والثانيْ كقوة الاغتذاء والنمو للحيوان المغتذي النامي، والثالث كصحته وسمعه وبصره وقوته،

والرابع كالعلم بدقائق المعلومات، التي العلم بها خير من الجهل وليست ضرورية له.

وأما الأمور الوجودية فوجود كلّ ما يضادّ الحياة والبقاء والكمال كالأمراض وأسبابها، والآلام وأسبابها. والموانع الوجودية التي تمنع حصول الخير ووصوله إلى المحل القابل له المستعد لحصوله، كالمواد الرديئة المانعة من وصول الغذاء إلى أعضاء البدن وانتفاعها به، وكالعقائد الباطلة، والإرادات الفاسدة المانعة لحصول أضدادها للقلب.

إذا عرف هذا فالشّرّ بالذات هو عدم ما هو ضروري للشيء في وجوده أو بقائه أو كماله، ولهذا العدم لوازم من شرٍّ أيضاً؛ فإن عدم العلم والعدل يلزمهما من الجهل والظلم ما هو شرور وجودية، وعدم الصحة والاعتدال يلزمهما من الألم والضرر ما هو شر وجودي. وأما عدم الأمور المستغنى عنها كعدم الغنى المفرط، والعلوم التي لا يضرّ الجهل بها، فليس بشرٍّ في الحقيقة، ولا وجودها سبباً للشّرّ؛ فإن العلم منه حيث هو علم، والغنى منه حيث هو غنى، لم يوضع سبباً للشر، وإنّما يترتّب الشر من عدم صفة تقتضي الخير كعدم العفة والصبر والعدل في حق الغني، فيحصل الشر له في غناه بعدم هذه الصفات، وكذلك عدم الحكمة ووضع الشيء موضعه وعدم إرادة الحكمة في حق صاحب العلم يوجب ترتّب الشر له على ذلك، فظهر أنّ الشّرّ لم يترتّب إلاّ على عدم، وإلاّ فالموجود من حيث وجوده يكون شراً ولا سبباً للشر، فالأمور الوجودية ليست شروراً[1].

ثم إنَّ إنكاره سبحانه أن يسوِّي بين المختلفين، أو يُفرّق بين

---

(١) شفاء العليل ص (١٨٠).

المتماثلين، فلأنّ حكمته وعدله يأبى ذلك.

أما الأول فكقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦] فأخبر أنّ هذا حكم باطل جائر، يستحيل نسبته إليه كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه، ومنكرو الحكمة والتعليل يجوّزون نسبة ذلك إليه، بل يقولون بوقوعه.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] فجعل سبحانه ذلك حكماً سيئاً يتعالى ويتقدّس عن أن يجوز عليه، فضلاً عن أن ينسب إليه.

بل أبلغ من هذا أنه أنكر على مَن حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره، وأن حكمته تأبى ذلك كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦][١].

فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان لمخالفته لحكمته.

(١) «وليجة»: بِطانة، وأصحاب سِرّ، وأولياء.

وأما الثاني وهو ألا يفرق بين المتماثلين، فكقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

وقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢].

وقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ [القمر: ٤٣].

وقوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

وقوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣].

وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥].

فسنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم، وإهانة أولئك وإذلالهم وكبتهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [المجادلة: ٥] والقرآنُ مملوءٌ من هذا، يخبر تعالى أنَّ حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله، وضدّ حكم مضاده ومخالفه.

وحكمته عز وجل تستلزمُ وَضْعَ كلّ شيء موضعه الذي لا يليق به سواه، فاقتضت خلق المتضادات، وتخصيص كلّ واحد منها لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص، وهل تتم الحكمة إلا بذلك؟!.

ثم إنَّ حَمْدَه سبحانه تام كامل من جميع الوجوه،فهو محمودٌ على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانته، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه وإكرامه، فللَّه الحمدُ التّام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمَد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائه، ويحمَده عليه أهلُ الموقف جميعهم.

وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة، كما له عليه الحمد التام، فلا يجوز تعطيلُ حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته.

وهو سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره وأناته وسعة رحمته وجوده؛ فاقتضى ذلك خَلْق من يشرك به ويضادّه في حكمه، ويجتهد في مخالفته، ويسعى في مساخطه، بل يشبِّهه سبحانه، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ويرزقه ويعاقبه، ويُمكِّن له من أسباب ما يلتذّ به من أصناف النعم، ويجيب دعاءه، ويكشف عنه السوء، ويعامله من بره وإحسانه بضدّ ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته، فللّه كم في ذلك من حكمة وحمد! ويتحبب إلى أوليائه، ويتعرّف بأنواع كمالاته كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا أحَدَ أصبرُ على أذى يسمعه من الله يجعلون له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم»(١).

وفي الصحيح عنه ﷺ فيما يروي عن ربه: «شتمني ابنُ آدمَ وما

---

(١) سبق تخريجه (ص ٤٥).

ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك. أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدَني كما بدأني، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته»[1].

وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب يرزق الشاتم المكذّب، ويعافيه، ويدفع عنه، ويدعوه إلى جنته، ويقبل توبته إذا تاب إليه، ويبدله بسيئاته حسنات، ويلطف به في جميع أحواله، ويؤهّله لإرسال رسله، ويأمرهم بأن يلينوا له القول ويرفقوا به.

قال الفضيل بن عياض: ما من ليلةٍ يختلطُ ظلامُها إلا نادى الجليلُ جلّ جلاله: مَنْ أعظمُ مني جوداً؟ الخلائق لي عاصون وأنا أكْلَؤُهُم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولّى حفظَهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضّل على المسيء.

من ذا الذي دعاني فلم ألبّه؟ ومن ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أنا الجواد، ومني الجود. أنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني. ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلق؟ وأين عن بابي يتنحّى العاصون؟!

وفي أثر إلهي: «إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلُق ويُعْبَدُ غيري، وأرزق ويُشْكَر سواي».

وفي أثر حسن: «ابنَ آدم! ما أنصفتني، خيري إليك نازل وشرك إلي صاعد، كم أتحبّب إليك بالنعم وأنا غني عنك! وكم تتبغّض إليّ بالمعاصي

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤) في التفسير، باب: سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ والنسائي (٤/ ١١٢) في الجنائز، باب: أرواح المؤمنين، وأحمد (٢/ ٣١٧، ٣٥٠، ٣٩٤).

وأنت فقير إلي! ولا يزال المَلَك الكريم يعرج إليّ منك بعمل قبيح».

وفي الحديث الصحيح: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»[1].

فهو سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلقَ خَلْقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله؛ بل يكون يحب أمانه وإمهاله. ولمحبته لعدله، وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته. ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان، فلولا خَلْقُ مَن يُجْرِي على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها، فتبارك الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة والنعم السابغة، الذي وصلت حكمتُه إلى حيث وَصَلَت قدرته، وله في كلّ شيء حكمة باهرة، كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات إنما ذكرنا منه قطرة من بحر، وإلا فعقولُ البشر أعجز وأضعفُ وأقصر من أن تحيطَ بكمال حكمته في شيء من خلقه[2].

وقال بعضُ المتكلمين: لا يضاف إلى الله سبحانه إلا العلم لا المعرفة[3]؛ لأنَّ علمه متعلّق بالأشياء كلها مركبها ومفردها تعلّقاً واحداً، بخلاف علم المحدثين؛ فإن معرفتهم بالشيء المفرد وعلمهم به غير

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٨) في التوبة، باب: سقوط الذنب بالاستغفار توبة، من حديث أبي أيوب، و(٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة، ورواه أحمد (١/ ٢٨٩ و٢/ ٣٠٥).

(٢) شفاء العليل ص (٢٣٨).

(٣) انظر الفروق بين العلم والمعرفة، وما يطلق على الله سبحانه منهما في (الفروق في اللغة) لأبي هلال العسكري ص (٧٢ ــ ٧٣).

علمهم ومعرفتهم لشيء آخر، وهذا بناء منه على أن الله تعالى يعلم المعلومات كلّها بعلم واحد، وأنّ علمه بصدق رسول الله ﷺ هو عين علمه بكذب مُسيلمة، والذي عليه محقّقو النظار خلاف هذا القول، وأنّ العلومَ متكثرة متغايرة بتكثر المعلومات وتغايرها، فلكلّ معلوم علم يخصّه، ولإبطال قول أولئك وذكر الأدلة الراجحة على صحة قول هؤلاء مكان هو أليق به.

وعلى هذا فالفرقُ بين إضافة العلم إليه تعالى وعدم إضافة المعرفة لا ترجع إلى الإفراد والتركيب في متعلق العلم، وإنّما ترجع إلى نفس المعرفة ومعناها؛ فإنها في مجاري استعمالها إنما تستعمل فيما سبق تصوره من نسيان أو ذهول أو عزوب عن القلب، فإذا تصوّر وحصل في الذهن قيل: عرفه أو وصف له صفته ولم يره، فإذا رآه بتلك الصفة وتعينت فيه قيل: عرفه، ألا ترى أنك إذا غاب عنك وجه الرجل ثم رأيته بعد زمان فتبينت أنه هو قلت: عرفته، وكذلك عرفت اللفظة، وعرفت الديار، وعرفت المنزل، وعرفت الطريق؟!

وسِرُّ المسألة أنَّ المعرفة لتمييز ما اختلط فيه المعروف بغيره فاشتبه، فالمعرفة تمييز له وتعيين. ومن هذا قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[1] [البقرة: ١٤٦] فإنهم كان عندهم من صفته قبل أن يروه ما طابق شخصه عند رؤيته وجاء كما يعرفون أبناءهم من باب ازدواج الكلام وتشبيه أحد اليقينين بالآخر، فتأمله. وقد بسطنا هذا في كتاب «التحفة المكية»[2] وذكرنا فيه من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف.

---

(١) تمام الآية: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦] والحديث عن صفة النبي ﷺ.

(٢) هو كتاب لابن قيّم الجوزية، ويُعتبر في عداد الكتب المفقودة.

وأما ما زعموا من قولهم إن (عَلِمْتَ) قد يكون بمعنى (عرفْتَ)، واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

وبقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدّت إلى مفعول واحد، وهذا هو حقيقة العرفان فاستشهاد ظاهر، على أنه قد قال بعض الناس أنَّ تعدّي فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلى مفعول واحد لا يخرجها عن كونها علماً على الحقيقة؛ فإنّها لا تتعدى إلى مفعول واحد على نحو تعدّي (عرفت)، ولكن على جهة الحذف والاختصار، فقوله: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم، وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم[1].

وكذلك قوله: ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ فربما كانوا يعرفونهم ولا يعلمونهم أعداء لهم، فيتعلّق العلم بالصفة المضافة إلى الموصوف لا بعينه وذاته قال هذا، وإنما مثل من يقول أن علمت بمعنى عرفت من أجل أنها متعدية إلى مفعول واحد في اللفظ؛ كمثل من يقول أنَّ سألت يتعدّى إلى غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط، وسألت الدار، ويحتجّ بقوله ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف وكذلك ما تقدم، وليس ما قاله هؤلاء بقوي، فإنَّ اللَّهَ سبحانه نفى عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين، هذا صريح اللفظ، وإنما جاء نفي معرفة نفاقهم من جهة اللزوم، فهو ﷺ كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين، وهو موجود

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

في غيرهم؛ ولا يعرف أعيانهم، وليس المراد أنَّ أشخاصهم كانت معلومةً له معروفة عنده، وقد انطووا على النفاق وهو لا يعلم ذلك فيهم؛ فإنَّ اللفظَ لم يدلّ على ذلك بوجه، والظاهر بل المتعين أنه ﷺ لو عرف أشخاصهم لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول[1]، ولم يكن يخفى عليه نفاق من يُظْهِرُ له الإسلام ويُبْطِن عداوته وعداوة الله عز وجل.

والذي يزيد هذا وضوحاً الآية الأخرى، فإن قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فيه قولان: أحدهما أنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس على محاربة الله ورسوله، وعلى هذا فالآية نصّ في أنّ العلم فيها بمعنى المعرفة[2].

وقال ابن القيِّم نظماً:

والحِكمـةُ العليا على نوعين أيـ ـضاً حُصِّلا بقواطِعِ البُرهَان
إحداهُما في خَلْقِهِ سبحانه نوعان أيضاً ليس يفترقان
إحكامُ هذا الخلق إذْ إيجاده في غايةِ الإحكام والإتقان
وصدورُهُ مِنْ أجلِ غاياتٍ له وله عليها حَمْدُ كُلِّ لِسَانِ
والحكمةُ الأخرى فحكمةُ شرعه أيضاً وفيها ذانِكَ الوصفان
غاياتُها اللائي حُمِدْن وكونُها في غايةِ الإتقانِ والإحسان

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمٰن السعدي ـ رحمه الله ـ في شرحه لهذه الأبيات:

وحكمته نوعان: أحدهما: الحكمة في خلقه؛ فإنه خلق الخلق بالحق

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ [محمد: ٣٠].

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٦٢).

ومشتملاً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتّبها أكمل ترتيب، وأعطى كُلَّ مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كلّ جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمٰن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدروا، وأنّى لهم القدرة على شيء من ذلك، وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حكمه ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان، وهذا أمرٌ معلومٌ قطعاً بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر.

وقد تحدّى عباده أن ينظروا ويكرّروا النظر والتأمل، هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً، وأنه لابد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته[1].

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره؛ فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب، فهل هناك كرم أعظم من هذا؟ فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجل الفضائل لمن يمنّ الله عليه بها وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم، فلو لم يكن في شرعه وأمره إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق

---

(١) في قوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك: ٣، ٤].

الجزاء، وخلقت الجنة والنار لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علماً ويقيناً وإيماناً وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل، وعمل صالح وهدى ورشد، وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحاً حقيقياً إلا بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لَمّا كانوا قائمين بهذا الدّين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد إليه، كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح.

ولما انحرفوا عنه وتركوا كثيراً من هداه، ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم.

وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغاً هائلاً، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله كان ضررُها أعظم من نفعها، وشرّها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ما داموا على حالهم؛ ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه.

* * *

السميع البصير

السَّمْعُ يُرادُ به إدراك الصوت، ويراد به فَهْم المعنى، ويُراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن.

فمن الأول قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١] وهذا أصرحُ ما يكون في إثبات صفة السمع له، ذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع، كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلةُ[1] تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جانب البيت، وإنه ليخفى عليّ بعضُ كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[2] [المجادلة: ١] فالسميع: الذي قد استوى في سمعه سرّ القول وجهره، وسع سمعه الأصوات؛ فلا تختلف عليه أصوات الخلق، ولا تشتبه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه كثرة السائلين.

والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾

---

(١) المجادلة: هي خولة بنت ثعلبة، جاءت تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وزوجها أوس بن الصامت.

(٢) رواه البخاري تعليقاً (١٣/ ٣٧٢)، وابن ماجه (١٨٨) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وأحمد (٦/ ٤٦)، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه، كما في الدر المنثور (٨/ ٦٩)، وأخرجه الحاكم وصححه بلفظ: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء.

[الأنفـال: ٢٣] أي لأفهمهـم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣] لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان: إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القَبُول والإجابة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧][١] أي قابلون مستجيبون. ومنه قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المـائـدة: ٤٢] أي قـابلـون لـه مستجيبـون لأهلـه. ومنـه قـول المصلِّي: سمع الله لمن حمده، أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه، وقول النبي ﷺ: «إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا: ربنا ولك الحمد، يسمع الله لكم»[٢] أي يجيبكم[٣].

ويندفعُ شَرُّ الحاسدِ عن المحسود بعشرة أسباب: **أحدها**: التعوذ بالله من شرّه، والتحصّن به، واللجأ إليه، والله تعالى سميعٌ لاستعاذته، عليم بما يستغيذ به.

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام، فهو مثل قوله: سمـع الله لمـن حمـده. وقـول الخليـل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر لاقتضاء حال المستعيذ

---

(١) «خبالاً»: شرّاً وفساداً، أو عجْزاً وجُبْناً. «لأوضعوا خلالكم»: لأسرعوا بينكم بالنمائم لإفساد ذات البين.

(٢) رواه مسلم (٤٠٤) في الصلاة، باب: التشهد في الصلاة، والنسائي (٢/١٩٦ ـ ١٩٧) في الافتتاح، باب: قوله ربنا ولك الحمد.

(٣) مفتاح دار السعادة (ص ٧٩)، وطريق الهجرتين (ص ١٦٦).

ذلك، فإنه يستعيذُ به من عدو يعلم أن الله يراه ويعلم كيده وشره، فأخبر اللَّهُ تعالى هذا المستعيذَ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه يراه ويبصره، لينبسط أملُ المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمةَ القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف وحم السجدة[1]، وجاءت الاستعاذة من شرّ الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حَم المؤمن فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال مُعايَنة تُرى بالبصر، وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يُلقيها في القلب، يتعلّق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرى بالبصر ويُدرك بالرؤية[2].

كما جَرَتْ عادةُ القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة، كقوله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ [البقرة: ٢٠٩].

وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ١٣٤﴾ [النساء: ١٣٤].

والقرآنُ مملوءٌ من هذا، وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك أني أسمع

---

(١) قال تعالى: ﴿وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقال عز وجل: ﴿وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنّه هو السميع العليم﴾ [فصلت: ٣٦].

(٢) بدائع الفوائد (٢/٢٣٨).

ما يردّون به عليك، وما يقابلون به رسالاتي، وأبصر ما يفعلون.

ولا ريب أنّ المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان: **أحدهما**: قابلوها بقولهم: صدقت ثم عملوا بموجبها. **والثاني**: قابلوها بالتكذيب ثم عملوا بخلافها، فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر، فقدَّم ما يتعلق به على ما يتعلَّق بالمبصر.

وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦] هو يسمعُ ما يجيبهم ويرى ما يصنعه، وهذا لا يعمّ سائر المواضع بل يختصّ منها بما هذا شأنه.

ثم إنّ إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين السامع والمسموع أشدّ من إنكارها لرؤيته مع بعده. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا[1]. ولم يقولوا أترون الله يرانا، فكان تقديم السمع أهمّ، والحاجة إلى العلم به أمسّ[2].

* * *

(١) رواه البخاري (٤٨١٧) في التفسير، باب: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾، ومسلم (٢٧٧٥) في صفات المنافقين وأحكامهم.
(٢) بدائع الفوائد (١/ ٧٣).

العــدل

العدل: الذي يتصرّف بالعدل في عباده، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، وقضائه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه. فخبره كلّه صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كلّه مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله، ورحمتُه وعقابُه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وفـرّق بيـن الحكـم والقضـاء؛ فجعـل المضـاء للحكـم والعـدل للقضاء[1]، فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين، قـد مضيا فيه ونفـذا فيـه شـاء أم أبـى، لكـن الحكـم الكونـي لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه، قال: «عَدْلٌ فيَّ قضاؤُك» أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدل منك فيه، وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه، وقد يشاء

---

(١) كما في الحديث: «ما أصاب أحداً قطُّ همّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدُك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمّيتَ به نفسك، أو علّمته أحداً من خَلْقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي، إلاّ أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً». رواه أحمد (١/ ٣٩١).

تنفيذه وقد لا ينفذه، فإن كان حكماً دينياً فهو ماضٍ في العبد، وإن كان كونياً فإن نفذه سبحانه مضى فيه، وإن لم ينفذه اندفع عنه فهو سبحانه يمضي ما يقضي به، وغيره قد يقضي بقضاء ويقدر أمراً ولا يستطيع تنفيذه، وهو سبحانه يقضي ويمضي فله القضاء والإمضاء.

وقوله: «عدل فيَّ قضاؤك» يتضمّن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه، من صحة وسقم، وغنى وفقر، ولذة وألم، وحياة وموت، وعقوبة وتجاوز، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ۝٤٨﴾ [الشورى: ٤٨].

فكل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه.

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره، فما وجه العدل في قضائها، فإنّ العدل في العقوبة عليها ظاهر؟

قيل: هذا سؤال له شأن، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور، والظلم ممتنع لذاته، قالوا: لأنّ الظُّلم هو التصرف في ملك الغير، والله له كلّ شيء، فلا يكون تصرّفه في حقه إلاّ عدلاً.

وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذم إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القَدَر، فزعموا أنَّ مَن أثبت القَدَر لم يمكنه أن يقول بالعدل، ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدَر، كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه

لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلاً، وعدلهم تكذيباً بالقدر.

وأما أهل السُّنّة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه؛ كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزّه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وإن أضلّ مَن شاء وقضى بالمعصية والغيّ على من شاء؛ فذلك محض العدل فيه؛ لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به، كيف ومن أسمائه الحسنى (العدل) الذي كلّ أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العِلل، ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله. ووفّق من شاء بمزيد عناية، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه فهذا فضله، وخَذَل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلّى بينه وبين نفسه ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه؛ فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله.

وهذا نوعان:

أحدهما: ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه في الطاعة، والموافقة عليه، وتناسي ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني: ألا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية، ولا يشكره عليه، ولا يثني عليه بها، ولا يحبه، فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محلّه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[1] [الأنفال: ٢٣].

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحيَّة بأن تقتل، وعلى العقرب، وعلى الكلب العقور، كان ذلك عدلاً فيه، وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة.

والمقصود أن قوله ﷺ: «ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك» ردّ على الطائفتين القدرية الذين ينكرون عموم أقضية الله في عبده، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره، ويردون القضاء إلى الأمر والنهي، وعلى الجبرية الذين يقُولون: كل مقدور عدل، فلا يبقى لقوله: «عدل فيَّ قضاؤك» فائدة، فإن العدل عندهم كلّ ما يمكن فعله، والظلم هو المحال لذاته، فكأنه قال: ماضٍ ونافذ فيّ قضاؤك، وهذا هو الأول بعينه[2].

وكلّ نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأنه أفرح بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها، وأنه سبحانه لم يكلّف عباده إلاّ وسعهم وهو دون طاقتهم، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم، بخلاف وسعهم فإنه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه كما هو الواقع، وأنه سبحانه لا يعاقبُ أحداً بغير فعله ولا يعاقبه على فعل

---

(١) ذكر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيراً لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره، حتى يعقلوا عن الله حججه منه، ولكنه قد علم أن لا خير فيهم، وأنهم مما كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. جامع البيان (٩/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٢) الفوائد (ص ٢٣).

غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله، ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه[1].

وإن الله سبحانه أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسمٰوات. فإن ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثَمَّ شرع الله ودينه. والله سبحانه أعلم وأحكم، وأعدل أن يخصّ طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء، ثم ينفي ما هو أظهر منها، وأقوى دلالة، وأبين أمارة. فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بيّن سبحانه بما شرعه من الطرق: أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين، ليست مخالفة له[2].

والعدل وَضْعُ الأشياء في مواضعها التي تليق بها، وإنزالها منازلها كما أنّ الظلمَ وَضْعُ الشيء في غير موضعه.

وقد تسمّى سبحانه بالحكم العدل، والقدرية تنكر حقيقة اسم الحكم، وتردّه إلى الحكم الشرعي الديني، وتزعم أنها تثبت حقيقة العدل، والعدل عندهم إنكار القدر، ومع هذا فينسبونه إلى غاية الظلم، فإنهم يقولون: إنه يخلد في العذاب الأليم من أفنى عمره في طاعته ثم فعل كبيرة ومات عليها.

فإن قيل: فالقضاء بالجزاء عدل، إذ هو عقوبة على الذنب، فيكون القضاء بالذنب عدلاً على أصول أهل السنة، وهذا السؤال لا يلزم القدرية ولا الجبرية، أما القدرية فعندهم أنه لم يقض المعصية. وأما الجبرية

(١) طريق الهجرتين (ص ١٦٧).
(٢) الطرق الحكمية (ص ١٤).

فعندهم أن كلّ مقدور عدل، وإنما يلزمكم أنتم هذا السؤال.

قيل: نعم كلّ قضائه عدل في عبده، فإنه وضع له في موضعه الذي لا يحسن في غيره، فإنه وضع العقوبة ووضع القضاء بسببها وموجبها في موضعه، فإنه سبحانه كما يجازي بالعقوبة فإنه يعاقب بنفس قضاء الذنب، فيكون حكمه بالذنب عقوبة على ذنب سابق، فإن الذنوب تكسب بعضها بعضاً، وذلك الذنب السابق عقوبة على غفلته عن ربه وإعراضه عنه، وتلك الغفلة والإعراض هي في أصل الجبلّة والنشأة، فمن أراد أن يكمله أقبل بقلبه إليه، وجذبه إليه، وألهمه رشده، وألقى فيه أسباب الخير، ومن لم يرد أن يكمله تركه وطبعه، وخلّى بينه وبين نفسه؛ لأنه لا يصلح للتكميل، وليس محله أهلاً ولا قابلاً لما وضع فيه من الخير، وها هنا انتهى علم العباد بالقدر.

وأما كونه تعالى جعل هذا يصلح، وأعطاه ما يصلح له، وهذا لا يصلح، فمنعه ما لا يصلح له فذاك موجب ربوبيته وإلهيته وعلمه وحكمته؛ فإنه سبحانه خالق الأشياء وأضدادها، وهذا مقتضى كماله وظهور أسمائه وصفاته.

والمقصود أنه أعدل العادلين في قضائه بالسبب وقضائه بالمسبب، فما قضى في عبده بقضاء إلا وهو واقع في محله الذي لا يليق به غيره؛ إذ هو الحكم العدل الغني الحميد[1].

* * *

(١) شفاء العليل (ص ٢٧٦).

اللطيف

اللطيفُ يتضمَّن علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية. ومنه التلطّف كما قال أهل الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: ١٩].

فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه، وإلقائه في السجن، وبيعه رقيقاً، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه، وكذبها عليه، وسجنه، محناً ومصائب، وباطنها نعماً وفتحاً، جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشّهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات، وقد قال ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»(١).

فالقضاء كلّه خير لمن أُعطي الشكر والصبر جالباً ما جلب.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) في الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كلّه خير، وأحمد (٤/ ٣٣٢).

وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وموسىٰ وعيسى ومحمد ﷺ من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء، وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلى غاية كمالهم وسعادتهم.

فتأمّل قصة موسىٰ وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال، ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه فرماه في بيته وحجره على فراشه، ثم قدّر له سبباً أخرجه من مصر وأوصله به إلى موضع لا حُكم لفرعون عليه، ثم قدّر له سبباً أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة، ثم ساقه إلى بلد عدوه فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارّين منه، وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون، هذا كلّه مما يبيّن أنه سُبحانه يفعلُ ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق، مع ما في ضمنها من الرحمة التامة، والنعمة السابغة، والتعرّف إلى عباده بأسمائه وصفاته، فكم في أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها وإخراجه بسببها من الجنة من حكمه بالغة لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها!

وكذلك ما قدّره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بها إلى أشرف غاياته، وأوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العواقب.

وكذلك فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمه، ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية، التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحتْ لهم عواقبها، وهذا أمرٌ يضيق الجنانُ عن معرفة تفاصيله، ويحصر اللسان عن التعبير عنه.

وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم،

وأمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وهو سبحانه قد أحاط علماً بذلك كله قبل السموات والأرض، وقدّره وكتبه عنده، ثم يأمر ملائكته بكتابة ذلك من الكتاب الأول قبل خَلْق العبد، فيطابق حاله وشأنه لما كتب في الكتاب ولما كتبته الملائكة، لا يزيد شيئاً ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وجد كما كتبه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يُوجِد عبادَه أحوالهم، وما هُم عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنّهي، والخير والشر، بما أظهر معلومه، فاستحقّوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقّون ذلك وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه إعذاراً إليهم وإقامة للحجّة عليهم؛ لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا على علمك فينا؟ وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار.

وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زيّن لهم من الدنيا، وبما ركّب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

فأخبر في هذه الآية أنه خلق السمٰوات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه[١]، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر في الآية التي قبلها أنه خَلق الموتَ والحياة ليبتليهم أيضاً، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالوا به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، وإن خبّر في الآية الأولى أنه زيّن لهم ما على الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده عليه، وابتلى بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم موجوداً عياناً بعد أن كان غيباً في علمه.

فابتلى أبوي الإنس والجن كلّ منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه، وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه، فلهذا قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠].

واستمر هذا الابتلاءُ في الذريّة إلى يوم القيامة فابتلى الأنبياء بأممهم وابتلى أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله: «إني مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلٍ بك»[٢].

وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي الحديث الصحيح: أنّ ثلاثة أراد الله أن يبتليهم: أبرص وأقرع

---

(١) تمام الآية: ﴿وهو الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [هود: ٧].

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، بلفظ: «إنما بعثتُكَ لأبتليك وأبتلي بك».

وأعمى، فأظهر الابتلاءُ حقائقَهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه، وأنه كان أعمى فقيراً فأعطاه الله البصر والغنى، وبذل للسائل ما طلبه شكراً لله. وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كانا عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر، وقال في الغني: إنما أوتيته كابراً عن كابر(١).

وهذا حال أكثر الناس، لا يعترف بما كان عليه أولاً من نقص أو جهل وفقر وذنوب، وإنّ الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضدّ ما كان عليه، وأنعم بذلك عليه، ولهذا ينبّه سبحانه الإنسانَ على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره ومن حال إلى حال، حتى جعله بشراً سوياً؛ يسمع ويبصر، ويقول وينطق، ويبطش ويعلم، فنسي مبدأه وأوّله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربّه عليه، كما قال تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [المعارج: ٣٨ ـ ٣٩].

وأنت إذا تأمّلتَ ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالّة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرّده بالربوبية والإلٰهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سُدى، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبون

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤) في أحاديث الأنبياء، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، ومسلم (٢٩٦٤) في الزهد والرقائق.

ويكـذّبـون رسلـي، ويعـدلـون بـي خلقـي، وهـم يعلمـون مـن أيّ شـيء خلقتهم؟!

ويشبه هذا قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾ [الواقعة: ٥٧] وهم كانوا مصدِّقين بأنه خالقهم، ولكن احتجَّ عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسله، فدعاهم منهم ومن خلقه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسله والإيمان بلقائه، كما تضمنته سورة النعم، وهي سورة (النحل) من قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤] إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝٨١﴾ [النحل: ٨١][1].

فذكَّرهم بأصول النعم وفروعها، وعدّدها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم ليسلموا له؛ فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم، ثم أخبر عمّن كفره ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد: المساكن والأنعام، وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم[2].

---

(١) «ظلالاً»: أشياء تستظلّون بها كالأشجار.
«أكناناً»: مواضع تستكنّون فيها.
«سرابيل»: ما يُلْبَس من ثياب أو دروع.
«تقيكم بأسكم»: أي: الضَّرْب والطَّعْن في حروبكم.

(٢) تفسير مجاهد (١/ ٣٥٠).

وقال عون بن عبد الله: يقولون لولا فلان لكان كذا وكذا[1].

وقال الفراء وابن قتيبة: يعرفون أنَّ النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا[2].

وقالت طائفة: النعمة هاهنا محمد ﷺ وإنكارها جحدهم نبوته، وهذا يروى عن مجاهد والسدّي[3]، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو أجلّ النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث؛ فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله لقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال: إنما كان هذا لآبائنا ورثناه كابراً عن كابر جاحداً لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع اللذين ذكّرهما الملك بنعم الله عليهما فأنكرا، وقالا: إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر، فقال: إن كنتما كاذبين فصيّركما الله إلى ما كنتما، وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آباءهم، ثم ورثهم إياها فتمتّعوا هم وآباؤهم بنعمه.

وأما قول الآخرين: لولا فلان لما كان كذا، فيتضمّن قطع إضافة النعمة إلى من لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرّاً ولا نفعاً، وغايته أن تكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده، والسبب لا يستقل بالإيجاد، وجعله سبباً هو من نعم الله عليه، وهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب، وقد ينعم بدونه فلا يكون له أثر، وقد يسلبه تسببيه، وقد يجعل لها معارضاً

---

(١) (الدر المنثور ٥/ ١٥٥).

(٢) (معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٢) و (غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٤٨).

(٣) (الدر المنثور ٥/ ١٥٥).

يقاومها، وقد يرتّب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قول القائل: بشفاعة آلهتنا، فتضمّن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذلّ من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلاّ من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعةُ بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له؛ إذ ليس كلّ أحد أهلاً أن يشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواه؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فالعبدُ لا خروج له عن نعمته وفضله ومنّته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا ذمَّ اللَّهُ سبحانه من آتاه شيئاً من نعمة فقال: إنما أوتيته على علم عندي.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩][1].

وقال البغوي: على علم من الله إني له أهل. وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي[2].

ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله.

وقال آخرون: بل العلم له نفسه، ومعناه: أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب، قاله قتادة وغيره.

---

(١) «خولناه نعمة»: أعطيناه إياها تفضّلاً وإحساناً.

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٨٢).

وقيل المعنى: قد علمت أني لما أوتيت هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف، وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف، قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] أي النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيها، ومحنة نمتحنه بها، لا يدلّ على اصطفائه واجتنابه، وأنه محبوب لنا مقرّب عندنا، ولهذا قال في قصة قارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدلُّ على رضاء الله سبحانه عمن آتاه ذلك، وشرف قدره، وعلو منزلته عنده، لما أهلكَ مَن آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته، علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] أي النعمة فتنة لا كرامة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩﴾ [الزمر: ٤٩].

ثم أكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾ [الزمر: ٥٠ ـ ٥١] أي: قد قال هذه المقالة الذين من قبلهم لما آتيناهم نعمنا.

قال ابن عباس: كانوا قد بطروا نعمة الله إذ آتاهم الدنيا، وفرحوا بها وطغوا، وقالوا: هذه كرامة من الله لنا.

وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾ [الزمر: ٥٠] المعنى أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا ولم يكن كذلك؛ لأنهم وقعوا في العذاب ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئاً، وتبيّن أن تلك النعم لم تكن لكرامتهم علينا، وهوانٍ من منعناه إياها.

وقال أبو إسحاق[1]: معنى الآية أن قولهم: إنما آتانا الله ذلك لكرامتنا عليه وإنا أهله، أحبط أعمالهم، فكنّى عن إحباط العمل بقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾ [الزمر: ٥٠].

ثم أبطل سبحانه هذا الظن الكاذب منهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢].

والمقصود أن قوله: ﴿على علم عندي﴾ إن أريد به علمه نفسه كان المعنى: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصّلت بها إلى ذلك وحصلته بها، وإن أريد به علم الله كان المعنى: أوتيته على ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق وإني أهله، وذلك من كرامتي عليه، وقد يترجَّحُ هذا القول بقوله: ﴿أوتيته﴾ ولم يقل حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدلَّ على اعترافه بأنَّ غيره آتاه إياه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بل هي فتنة﴾ أي محنة واختبار، والمعنى أنه لم يؤت هذا لكرامته علينا بل أوتيه امتحاناً منا وابتلاء واختباراً؛ هل يشكر فيه أم يكفر؟

وأيضاً فهذا يوافق قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦] فهو قد اعترف بأنَّ ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظنَّ أنه لكرامته عليه، فالآية على التقدير الأول تتضمّن ذمَّ مَن أضاف النعم إلى نفسه وعلمه وقوته، ولم يضفها إلى فَضْل الله وإحسانه، وذلك محضُ الكفر بها، فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة، وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلى غيره كان جحداً لها، فإذا قال أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك، فقد أضافها إلى نفسه وأُعجِب بها،

(١) معاني القرآن للزجاج (٤/٣٥٧).

كما أضافها إلى قدرته الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فهؤلاء اغترّوا بقوتهم، وهذا اغتر بعلمه، فما أغنى عن هؤلاء قوتهم، ولا عن هذا علمه.

وعلى التقدير الثاني يتضمّن ذمّ مَن اعتقد أنّ إنعام الله عليه لكونه أهلاً ومستحقاً لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به مِن الصِّفات التي يستحقّ بها على الله أن ينعَم عليه، وأنَّ تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره، فقد جعل سببها ما اتّصف به هو، لا ما قام بربّه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أنَّ ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر، ليس ذلك جزاء على ما هو منه، ولو كان ذلك جزاء على عمله أو خير قام به فالله سبحانه هو المنعمُ عليه بذلك السبب، فهو المنعمُ بالمسبب والجزاء، والكل محض مِنَّته وفضله وجُوده، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرّة من الخير.

وعلى التقديرين؛ فهو لم يضف النعمة إلى الرَّبِّ من كلّ وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه، وهو سبحانه وحده المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه، فكسبه من نعمه، فكلُّ نِعْمة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نعمة، وهي منه سبحانه، فلا يطيقُ أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه، كما قال داود: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك عليّ تستوجب شكراً آخر؟! فقال: الآن شكرتني يا داود[1]. ذكره الإمام أحمد.

وذكر أيضاً عن الحسن قال: قال داود: إلٰهي لو أنَّ لكلّ شعرة من

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل رقم (٣٧٣)، والشكر لابن أبي الدنيا (ص ٦٧).

شعري لسانين يذكرانك بالليل والنهار والدهر كله؛ لما أدّوا مالك عليّ من حق نعمةٍ واحدة(١).

والمقصود أنَّ حال الشاكر ضد حال القائل ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، ونظير ذلك قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٤٩ ـ ٥٠].

قال ابن عباس: يريد من عندي(٢).

وقال مقاتل: يعني أنا أحقّ بهذا.

وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به(٣).

وقال الزجاج: هذا واجب بعملي استحقيته.

فوصف الإنسان بأقبح صفتين؛ إن مسّه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس، فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر، وظن أنه هو المستحقّ لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى(٤)، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً(٥).

---

(١) الزهد رقم (٣٦١)، والشكر (ص ٧٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٣).

(٣) تفسير مجاهد (٢/ ٥٧٢)، وتفسير الطبري (٢٥/ ٣).

(٤) في قوله تعالى: ﴿وما أظن الساعة قائمةً، ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت: ٥٠].

(٥) شفاء العليل (ص ٣٤).

وقال ابن القيّم نظماً:

وهو اللطيفُ بعبده ولعبده ... واللُّطفُ في أوصافه نوعانِ
إدراكُ أسرارِ الأمور بخبرة ... واللطفُ عند مواقع الإحسان
فيريك عزَّته ويُبدي لطفه ... والعبدُ في الغَفْلاتِ عَنْ ذا الشَّانِ

قال صاحب النهاية:

في أسماء الله تعالى «اللطيف» هو الذي اجتمعَ له الرِّفْقُ في الفعل، والعلمُ بدقائق المصالح وإيصالها إلى مَن قدّرها له من خَلْقه، يقال: لَطَف به وله، بالفتح، يَلْطُف لُطْفاً، إذا رفق به، فأما لَطُفَ بالضم يَلْطُف فمعناه صَغُرَ وَدَقَّ(١).

وقال الراغب في «المفردات»:

وقد يُعبَّر باللطائف عما لا تدركها الحاسة، ويصحّ أن يكونَ وصفُ الله تعالى به على هذا الوجه، وأن يكونَ لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكونَ لرفقه بالعباد في هدايتهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي يحسنُ الاستخراجَ تنبيهاً على ما أوصل إليه يوسف حيث ألقاه إخوتُه في الجُبِّ(٢).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

فهو سبحانه يلطفُ بعبده في أموره الداخلية المتعلّقة بنفسه، ويلطف له في الأمور الخارجة عنه؛ فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، وهذا من آثار علمه ورحمته وكرمه.

وقد ذكر المؤلِّف لهذا الاسم معنيين:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٥١).

(٢) المفردات (ص ٤٥٠).

أحدهما: أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار وخفيات الأمور ومكنونات الصدور وما لطف ودق من كلّ شيء، فهو يعلمُ جميعَ الوجوه الممكنة له، بحيث لا يشذُّ شيءٌ منها عن علمه وخبرته.

والثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يمنّ عليه ويشمله بلطفه وكرمه، ويرفعه إلى المنازل العالية، وييسره لليسرى ويجنّبه العسرى، فهو يجري عليه من أصناف المحن وألوان البلاء؛ ما علم أن فيه صلاحه وسعادته وحسن العاقبة له في الدنيا والآخرة، كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم لهم، وبالجهاد في سبيله، وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون؛ وهذا معنى قول المصنف (فيريك عزته) أي بامتحانك بما تكره (ويبدي لطفه) أي في العواقب الحميدة والنهايات السارّة.

وكم استشرف العبدُ على مطلوب من مطالب الدنيا، من ولاية أو رئاسة أو سبب من الأسباب المحبوبة، فيصرفه اللَّهُ عنها ويصرفها عنه رحمةً به؛ لئلا تضرّه في دينه فيظلّ العبد حزيناً من جهله وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ذخر له في وجود خاص بالسائلين والطالبين، سواء سألوه بلسان المقال أو بلسان الحال، وسواء كان السائل مؤمناً أم كافراً، براً أم فاجراً، فمن سأل الله صادقاً في سؤاله طامعاً في نواله، مستشعراً الذلة والفقر بين يديه، أعطاه سؤله، وأناله ما طلب، فإنه هو البرّ الرحيم، الجواد الكريم.

ومن جوده الواسع سبحانه ما أعدّه لأوليائه في دار كرامته ومستقر رحمته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[1].

* * *

(١) شرح القصيدة النونية (ص ٩١).

الحليم العفو

قال ابن القيم نظماً:

وهـو الحليمُ فـلا يعـاجـلُ عبـدَه ... بعقـوبـةٍ ليتـوبَ مـن عِصيـان

وهـو العفـوُّ فعفـوه وَسِـعَ الـورَى ... لـولاه غـارَ الأرضُ بـالسُّكَّـان

قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي في تعليقه على هذين البيتين: ومن أسمائه سبحانه «الحليم والعفو»، فالحليم: الذي له الحلم الكامل الذي وَسِعَ أهلَ الكفر والفسوق والعصيان؛ حيث أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة رجاءَ أن يتوبوا؛ ولو شاء لأخذهم بذنوبهم فور صدورها منهم؛ فإنَّ الذُّنوبَ تقتضي ترتُّبَ آثارِها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، ولكن حلمه سبحانه هو الذي اقتضى إمهالهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤٥].

وأما العفو: فهو الذي له العفو الشامل الذي وسع ما يصدر من عباده من الذنوب؛ ولا سيما إذا أتوا بما يوجب العفو عنهم من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات[(١)]، وهو عفوّ يحبُّ العفو، ويحبُّ من عباده أن يسعوا في تحصيل الأسباب التي ينالون بها عفوه؛ من السعي في مرضاته

---

(١) لقوله تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ [الشورى: ٢٥].

والإحسان إلى خلقه، ومن كمال عفوه أنه مهما أسرف العبد على نفسه ثم تاب إليه ورجع غفر له جميع جُرْمه؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

* * *

الشاكر الشكور

إنَّ منزلة الشكر من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة الرضا وزيادة؛ فالرضا مندرجٌ في الشكر، إذ يستحيل وجودُ الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان، والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواصّ خلقه، وجعله غايةَ خلقه وأمره، ووعد أهلَه بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أنَّ أهلَه هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو «الشكور»، وهو يُوصِلُ الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده، وأهلُه هم القليل من عباده.

قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ــ ١٢١].

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ

﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١].

وسمى نفسه «شاكراً» «وشكوراً»، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه، وسمّاهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً وإعادته للشاكر مشكوراً، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢].

ورضا الرب عن عبده به، كقوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ١٣] وقلة أهله في العالمين تدلّ على أنهم هم خواصه، كقوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تورّمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً»[1]؟.

وقال لمعاذ: «والله يا معاذُ! إني لأحبُّك، فلا تنسَ أن تقولَ في دُبُر كلِّ صلاةٍ: اللهم أَعِنِّي علىٰ ذِكرِكَ، وشُكرِكَ، وحُسْنِ عِبادَتِكَ»[2].

(١) رواه البخاري (١١٣٠) في التهجد، باب: قيام النبي ﷺ الليلَ، ومسلم (٢٨١٩) في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢) في الصلاة، باب: في الاستغفار، والنسائي في سننه =

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهم أعني ولا تُعِنْ عليّ، وانصرني ولا تنصرْ عليّ، وامكُرْ لي ولا تمكر بي، واهدني ويسِّر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليَّ. ربِّ اجعلني شكَّاراً لك، ذكَّاراً لك، رهّاباً لك، مطاوعاً لك، مخبتاً إليك، أوّاهاً منيباً، ربِّ تقبَّل توبتي، واغسل حَوْبَتي، وأَجِبْ دَعوتي، وثبِّت حُجَّتي، واهدِ قلبي، وسدِّد لساني، واسْلُل سخيمة صدري[1]»[2].

ومبنى الدِّين على قاعدتين: الذِّكر والشُّكر، وليس المراد بالذكر مجرّد ذكر اللسان، بل الذّكر القلبي واللساني، وذكره يتضمّن ذكر أسمائه

= (٣/ ٥٣) في السهو، باب: نوع آخر من الدعاء، وفي (عمل اليوم والليلة رقم ١٠٩)، وأحمد (٥/ ٢٤٥)، وابن حبان (٢٣٤٥) «موارد»، والحاكم (١/ ٢٧٣) وصححه.

(١) رواه أحمد (١/ ٢٢٧)، وأبو داود (١٥١٠) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل إذا سلّم، والترمذي (٣٥٥١) في الدعوات، باب: في دعاء النبي ﷺ، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٣٠) في الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ.

«امكر لي»: مكر الله: إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه.

«رهّاباً لك»: أي: خوّافاً خاشعاً.

«مخبتاً»: من الإخبات، وهو الخشوع والتواضع.

«أوّاهاً»: متضرِّعاً بكّاء.

«منيباً»: راجعاً بالتوبة.

«حوبتي»: إثمي.

«اسلل»: انزع.

«السخيمة»: الحقد.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٢).

وصفاته، وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح؛ وذلك لا يتمُّ إلاّ بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشُّكر فهو القيامُ له بطاعته، والتقرّب إليه بأنواع محابّه ظاهراً وباطناً، وهذان الأمران هما جماع الدِّين، فذكرُه مستلزمٌ لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغايةُ التي خُلِق لأجلها الجن والإنس والسمٰوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدّها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه وهو ظن أعدائه به.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال بعد ذكر آياته في أول سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧][١].

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يُذْكَرَ وأنْ يُشْكَرَ؛ يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره، فذكره سبب لذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله، فالذكرُ للقلب واللسان والشكر للقلب محبةٌ وإنابةٌ، وللسان ثناءٌ وحمدٌ، وللجوارح طاعةٌ وخدمة[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

ورد «الشكور» مقترناً باسمه «الغفور» في قوله تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر: ٣٤].

ومقترناً باسمه الحليم في قوله: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن: ١٧].

ومعنى الشكور الذي يتقبّل أعمال عباده ويرضاها، ويثيبهم عليها،

---

(١) «قياماً للناس»: قِواماً لمصالحهم دِيناً ودُنْيا.
«الشهر الحرام»: الأشهر الحُرُم الأربعة.
«الهدي»: ما يُهدى من الأنعام إلى الكعبة.
«القلائد»: ما يُقلَّد به الهديُ علامةً له.

(٢) الفوائد (١٥٧).

ويضاعفها لهم أضعافاً كثيرة على قدر إخلاصهم فيها وإتقانهم لها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: ٣٠].

وقد ضَرَبَ اللَّهُ في كتابه مثلاً للنفقة التي تنفق في سبيله بحبّة أنبتت سبع سنابل، في كلّ سنبلة مئة حبة، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] إيذاناً بأنَّ المضاعفة قد تتجاوزُ هذا القدر لمن يشاء.

وفي الحديث الصحيح: «من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب ــ ولا يقبلُ الله إلا الطيب ــ فإنَّ اللَّهَ يتلقّاها بيمينه فيربيها له كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تصيرَ مثل الجبل العظيم»[1].

فسبحان من وفَّق عباده المؤمنين لمرضاته، ثم شكرهم على ذلك بحسن ثوابه وجزيل عطائه، مِنَّةً مِنْهُ وتفضّلاً لا حقّاً عليه واجباً، بل هو الَّذي أوجبه على نفسه جُوداً منه وكرماً[2].

* * *

(١) رواه البخاري (١٤١٠) في الزكاة، باب: الصدقة من كسب طيب، ومسلم (١٠١٤) من طريق آخر، وقال ابن حجر: وقد غفل صاحب الأطراف فسوّى بين روايتي الصحيحين في هذا، وليس بجيد. (فتح الباري ٣/ ٢٨٠).
«بعدل تمرة»: أي بقيمتها.
«فَلوَّه»: هو المُهر لأنه يفلى، أي: يفطم.

(٢) شرح القصيدة النونية ص (٩٨).

العلـــيّ

العلي: الذي علا عن كلّ عيب وسوء ونقص. ومن كمال علوّه ألا يكونَ فوقه شيء، بل يكون فوق كلّ شيء[1].

* * *

(١) شفاء العليل (ص ١٨٠).

قال تعالى: ﴿وهو العليُّ العظيم﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال إياس بن سلمة بن الأكوع الأسلمي عن أبيه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يستفتح دعاء الاستفتاح بـ: «سبحان ربي الأعلى العليّ الوهاب» رواه أحمد (٤/ ٥٤).

وقال الحليمي في معنى العلي: إنّه الذي ليس فوقه فيما يجب له من معالي الجلال أحد، ولا معه من يكون العلوّ مشتركاً بينه وبينه، لكنّه العليّ بالإطلاق. قال: والرفيع في هذا المعنى، قال الله عز وجل: ﴿رَفِيع الدَّرجات﴾ [غافر: ١٥] ومعناه: الذي لا أرفع قدراً منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهي أصنافها وأبوابها، لا مستحقّ لها غيره. (الأسماء والصفات ١/ ٤٥).

الكبيـر المتكبّـر

الكبير من أسمائه والمتكبّر.

قال قتادة وغيره: هو الذي تكبّر عن السوء[1].

وقال أيضاً: الذي تكبّر عن السيئات[2].

وقال مقاتل: المتعظّم عن كلّ سوء[3].

وقال أبو إسحاق: الذي يكبر عن ظلم عباده[4].

* * *

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦٧).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٨/ ٥٦) بلفظ: تكبّر عن كل شرّ.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٤/ ٣٢٧) بنحوه.

(٤) شفاء العليل (ص ١٨٠).

الحفيظ

قال ابن القيم نظماً:

وهو الحفيظُ عليهمُ وهو الكفيـ ـلُ بحفظهم من كُلِّ أمرٍ عَانِ

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في شرحه لهذا البيت:

ومن أسمائه سبحانه الحفيظ، وله معنيان:

أحدهما: أنه يحفظُ على العباد ما عملوه من خير وشر، وعُرْفٍ ونُكْر، وطاعة ومعصية؛ بحيث لا يفوته من ذلك مثقال ذرة، وحفظه لهذه الأعمال بمعنى ضبطه لها وإحصائه إيَّاها، فهو محيطٌ علماً بجميع أعمالهم، ظاهرها وباطنها، وهو قد كتبها في اللوح المحفوظ قبل أنْ يبرأها، بل قبل أن يخلقَ السمٰوات والأرض، وهو وَكَّلَ بها ملائكةً حافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون.

قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢][١].

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: ٦].

وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا

---

(١) «إمام مبين»: أصل بيّن (اللوح المحفوظ).

ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٢ ـ ٥٣][(١)].

فهذا المعنى من حفظه سبحانه يقتضي إحاطة علمه بأحوال العباد كلّها ظاهرها وباطنها، وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، كما يقتضي علمه بمقاديرها في كمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب؛ ثم مجازاتهم عليها بفضله وعدله.

والمعنى الثاني: من معنيي الحفيظ أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون. وإلى هذا أشار المؤلف بقوله: «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمرٍ عانٍ» أي مُشِق مكروه.

وحفظُهُ لخلقه نوعان: عام وخاص.

فالعام: هو حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيها ويحفظ بنيتها وإلهامها؛ بتدبير شؤونها والسعي فيما يصلحها، كلٌّ حسب خلقته، كما قال تعالى: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]، يعني هَدَى كُلَّ مخلوق إلى ما قدر له من ضروراته وحاجاته، وأعطاه من الوسائل والآلات ما يتمكّن معه من تحصيل مأكله ومشربه ومنكحه والسعي في أسباب ذلك، ولا شكَّ أنَّ هذا أمرٌ يشتركُ فيه البَرُّ والفاجرُ بل الحيواناتُ وغيرُها، فهو الذي يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا، وهو الذي يحفظ الخلائق بنعمه، وهو الذي وكَّل بالآدمي حفظةً من الملائكة ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

---

(١) «الزبر»: كُتُب الحفظة. «مستطر»: مسطور مكتوب في اللوح المحفوظ.

[الرعد: ١١] أي: يدفعون عنه من الضر والأذى ما لم يقدره الله مما هو بصدد أن يضرّه لولا حفظ الله.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه حفظاً زائداً على ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم ويزلزل يقينهم من الفتن والشبهات والشهوات؛ فيعافيهم منها، ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس؛ فينصرهم عليهم ويدفع كيدهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج ٣٨] وهذا عام في دَفْع جميع ما يضرُّهم في دينهم ودنياهم.

فعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعةُ اللَّهِ عنه بلطفه، كما في الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنه: «احفظِ اللَّهَ يحفظْكَ، احفَظِ اللَّهَ تجدْه تُجاهك[1]»[2].

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة، باب (٥٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (١/٣٠٧).
«احفظ الله»: اعرف حدوده وقِفْ عندها.
«يحفظك»: يصونك ويحميك.
«تُجاهك»: أمامك. وتجده تجاهك: أي تجده معك بالحفظ والتأييد والنصرة والمعونة.

(٢) شرح القصيدة النونية (ص ٩٠).

الرقيب، الشهيد

قال ابن القيم نظماً:

وهو الرقيبُ على الخواطرِ واللوا حظِ كيف بالأفعال بالأركان؟!

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي شارحاً هذا البيت:

ومن أسمائه الحسنى (الرقيب)، وهو واسمه (الشهيد) مترادفان، كلاهما يدلُّ على حضوره مع خلقه، يسمع ما يتناجون به، ويرى ما يخوضون فيه، ويعلم حركات خواطرهم وهواجس ضمائرهم وتقلّب لواحظهم، لا يغيبُ عنه من أمرهم شيءٌ يقولونه أو يفعلونه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١][1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

وكقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [قٓ: ١٦].

---

(١) «تكون في شأن»: في أمر هامّ مُعْتَنى به. «تفيضون فيه»: تَشْرَعُون وتخوضُون فيه. «ما يعزب»: ما يَبْعُد وما يغيب. «مثقال ذرّة»: وَزْن أصغر نملة أو هَبَاءة.

وفي الحديث الصحيح: «صريح الإيمان أن تعلمَ أنَّ اللَّهَ معك حيث كنت»[1].

ولهذا كانت المراقبةُ التي هي من أجلّ أعمال القلوب هي التعبُّدُ لِلَّهِ باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبدُ أنَّ حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاطَ اللَّهُ بعلمها، واستحضر هذا العلمَ في كلٍّ أحواله، أوجبَ له ذلك حراسةً باطنةً عن كلّ فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كلّ قول أو فعل يسخط الله، وتعبّد بمقام الإحسان فَعَبَدَ اللَّهَ كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[2].

وقول المؤلف رحمه الله: «كيف بالأفعال بالأركان» معناه أنه إذا كان اللَّهُ عز وجل رقيباً على دقائق الخفيات، مُطّلعاً على السَّرائر والنيات، كان من باب أولى شهيداً على الظواهر والجليات، وهي الأفعالُ التي تفعل بالأركان، أي: الجوارح[3].

* * *

---

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ٦٠): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وقال: تفرّد به عثمان بن كثير، قلت ــ أي الهيثمي ــ: ولم أرَ مَن ذكره بثقة ولا جرح، وذكره بلفظ: «إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» من حديث عبادة بن الصامت. ورواه الحكيم في (نوادر الأصول ص ٢٢٦) بلفظ: «إن أفضل إيمان العبد أن يعلم أن الله معه حيثما كان»، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢/ ١٧٢)، وأبو نعيم في (الحلية ٦/ ١٢٤) وقال: غريب من حديث عروة.

(٢) مصداقاً لقوله ﷺ: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

(٣) شرح القصيدة النونية (ص ٨٩).

الحميد المجيد

وصف الله تعالى نفسه بالمجيد، وهو المتضمِّن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه. وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء، والمخلوق إنما يصيرُ مجيداً بأوصافه وأفعاله، فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيداً، وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى الله عما يقول المعطِّلون علوّاً كبيراً، بل هو المجيدُ الفعَّال لما يريد.

والمجدُ في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير.

وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل عليه السلام ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣].

وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نُثني على الربّ تعالى بأنه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: ربّنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد، فالحمدُ والمجدُ على الإطلاق لله الحميد المجيد. فالحميدُ: الحبيبُ المستحقّ لجميع صفات الكمال. والمجيد: العظيم الواسع القادر الغني، ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ ﴿المجيدِ﴾[1] بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه، وإذا كان عرشُه مجيداً فهو سبحانه أحقّ بالمجد. وقد استشكل هذه القراءة بعض

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ذو العرش المجيدُ﴾ [البروج: ١٥].

الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرّجها على أحد الوجهين، إما على الجوار؛ وإما أن يكون صفة لربك، وهذا من قلة بضاعة هذا القائل، فإنَّ الله سبحانه وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد، ووصفه بالعظمة، فَوَصْفُهُ سبحانه بالمجد مطابقٌ لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحقّ المخلوقات أن يوصف بذلك؛ لسعته وحسنه وبهاء منظره، وعلوّ القدر والرتبة والذات. ولا يقدر قدر عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله. ومجدُه مستفادٌ من مجدِ خالقه ومبدعه. والسمٰوات السبع والأرضون السبع في الكرسي ـ الذي بين يديه ـ كحلقةٍ ملقاةٍ في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة.

قال ابن عباس: السمٰوات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس. فكيف لا يكون مجيداً وهذا شأنه؟! فهو عظيم كريم مجيد.

وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك[1].

والحميد: فعيل من الحمد وهو بمعنى محمود، وأكثر ما يأتي فعيلاً في أسمائه تعالى بمعنى فاعل كسميع، وبصير، وعليم، وقدير، وعليّ، وحكيم، وحليم، وهو كثير. وكذلك فعول، كغفور وشكور وصبور.

وأما الودود ففيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى فاعل، وهو الذي يحبّ أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين.

والثاني: أنه بمعنى مودود، وهو المحبوب الذي يستحقّ أن يحبّ

---

(١) التبيان (ص ٦٠).

الحب كلّه، وأن يكون أحبّ إلى العبد من سمعه وبصره ونفسه وجميع محبوباته.

وأما الحميد فلم يأتِ إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود؛ فإنَّ فعيلاً إذا عدل به عن مفعول دلَّ على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجية الغريزية والخلق اللازم، كما إذا قلت: فلان ظريف أو شريف أو كريم، ولهذا يكون هذا البناء غالباً من فعل بوزن شَرُفَ. وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة ككبُر وصَغُرَ وحَسُنَ وَلَطُفَ، ونحو ذلك[1].

ولهذا كان حبيب أبلغ من محبوب؛ لأنَّ المحبوبَ هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يحبّ لأجلها، فهو حبيب في نفسه، وإن قدر أن غيره لا يحبه لعدم شعوره به أو لمانع منعه من حبه، وأما المحبوب فهو الذي تعلّق به حب المحب، فصار محبوباً بحبّ الغير له. وأما الحبيب فهو حبيب بذاته وصفاته تعلّق به حب الغير أو لم يتعلق، وهكذا الحميد والمحمود.

فالحميد الذي له من الصِّفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكونَ محموداً وإن لم يحمده غيره، فهو حميدٌ في نفسه، والمحمودُ مَن تعلَّق به حَمْدُ الحامدين، وهكذا المجيد والممجَّد، والكبير والمكبَّر، والعظيم والمعظّم.

والحمد والمجد إليهما يرجعُ الكمال كلّه، فإن الحمدَ يستلزم الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تُثْنِ عليه لم تكن حامداً له، وكذا من أثنيت عليه لغرضٍ ما ولم تحبه لم تكن حامداً له حتى تكونَ مثنياً عليه

---

(١) ينظر: اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي (ص ٧٠) ومعاني الأبنية في العربية للسامرائي (ص ٦٣).

محبّاً، وهذا الثناءُ والحبُّ تبع للأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير، فإنَّ هذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الصفاتُ أجمع وأكمل كان الحمد والحب أتمّ وأعظم.

واللَّهُ سُبحانه له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما، والإحسان كله له ومنه، فهو أحقّ بكلّ حمد، وبكل حب من كل جهة، فهو أهلٌ أن يُحبَّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه ولكلّ ما صدز منه سبحانه.

وأما المجد فهو مستلزمٌ للعظمة والسعة والجلال كما يدلُّ عليه موضوعه في اللغة، فهو دالّ على صفات العظمة والجلال، والحمد يدلُّ على صفات الإكرام، والله سبحانه ذو الجلال والإكرام، وهذا معنى قول العبد: «لا إله إلا الله والله أكبر»، فلا إله إلا الله دالّ على ألوهيته وتفرده فيها؛ فألوهيته تستلزم محبته التامة، و «الله أكبر» دالّ على مجده وعظمته، وذلك يستلزم تمجيده وتعظيمه وتكبيره.

ولهذا يقرن سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيراً كقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١] فأمر بحمده وتكبيره.

وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمٰن: ٧٨].

وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾]الرحمٰن: ٢٧].

وفي المسند وصحيح أبي حاتم وغيره من حديث أنس عن النبي ﷺ

أنه قال: «ألظّوا بـ: يا ذا الجلال والإكرام»[1]، يعني: الزموها وتعلّقوا بها.

فالجلال والإكرام هو الحمد والمجد.

ونظير هذا قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٤].

وهو كثير في القرآن.

وفي الحديث الصحيح حديث دعاء الكرب «لا إلٰه إلاّ الله العظيم الحليم، لا إلٰـه إلاّ الله ربّ العـرش العظيـم، لا إلٰـه إلاّ الله رب السمٰـوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[2].

فذكر هذين الاسمين «الحميد المجيد» عقيب الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله مطابق لقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣].

ولما كانت الصَّلاةُ على النبي ﷺ، وهي ثناء الله تعالى عليه، وتكريمه، والتنويه به، ورفع ذكره، وزيادة حبّه، وتقريبه، كانت مشتملة على الحمد والمجد، فكأنّ المصلي طلب من الله تعالى أن يزيدَ في حمده ومجده، فإنّ الصلاة عليه هي نوع حمد له وتمجيد، هذا حقيقتها، فذكر في هذا المطلوب الاسمين المناسبين له وهما أسماء الحميد والمجيد.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٦) في الدعوات، باب: الدعاء عند الكرب، ومسلم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: دعاء الكرب.

وهذا يعني أنَّ الداعي يُشرع له أن يختم دعاءه باسم من الأسماء الحسنى يُناسِبُ لمطلوبه أو يفتتح دعاءه به، وهذا من قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال سليمان عليه السلام في دعائه ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥].

وقال الخليل وابنه إسماعيل في دعائهما ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

وكان النبي ﷺ يقول: «ربِّ اغفرْ لي وتُبْ عليّ، إنك أنت التوّاب الغفور»[١] مئة مرة في مجلسه.

وقال لعائشة رضي الله عنها وقد سألته: إن وافقت ليلة القدر ما أدعو به؟ قال: «قولي اللهم إنّك عفوّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عني»[٢].

وقال للصديق رضي الله عنه وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته: «قل: اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلاّ أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[٣].

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٦) في الوتر، باب: في الاستغفار، والترمذي (٣٤٣٤) في الدعوات، باب: ما يقول إذا قام من المجلس، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٣٨١٤) في الأدب، باب: الاستغفار، وأحمد (٢/ ٢١، ٦٧ و٥/ ١٩١، ٣٧١).

(٢) سبق تخريجه (ص ١١٩).

(٣) رواه البخاري (٨٣٤) في الأذان، باب: الدعاء قبل السلام، ومسلم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر.

وهذا كثير قد ذكرناه في كتاب: «الروح والنفس»[1].

وما قاله الناس في قول المسيح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل الغفور الرحيم.

وقول الخليل: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦].

فلما كان المطلوب للرسول ﷺ حمد ومجد بصلاة الله عليه ختم هذا السؤال باسمي «الحميد والمجيد»، وأيضاً فإنه لما كان المطلوبَ للرسول حمدٌ ومجد، وكان ذلك حاصلاً له، ختم ذلك بالإخبار عن ثبوت ذينك الوصفين للرب بطريق الأولى. وكلّ كمال في العبد غير مستلزم للنقص فالرب أحقّ به.

وأيضاً فإنه لمّا طلب للرسول حمداً ومجداً بالصلاة عليه، وذلك يستلزمُ الثناء عليه، ختم هذا المطلوب بالثناء على مرسله بالحمد والمجد؛ ليكونَ هذا الدعاء متضمناً لطلب الحمد والمجد لرسول الله ﷺ والإخبار عن ثبوته للرب سبحانه وتعالى[2].

والحمد كلّه لله ربّ العالمين؛ فإنه المحمودُ على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمودُ على طاعات العبد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمودُ على خلق الأبرار والفجّار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمودُ على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه، فكلُّ ذرّة من ذرات الكون شاهدة بحمده،

---

(١) كتاب «الروح والنفس» من الكتب المفقودة للمؤلف.
(٢) جلاء الأفهام (ص ١٨٦).

ولهذا سبّح بحمده السمٰوات السبع والأرض ومن فيهنّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «ربَّنَا وَلَكَ الحَمْد، مِلءَ السَّماءِ وَمِلءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيء بَعْدُ»[1].

فله سبحانه الحمد حمداً يملأُ المخلوقات والفضاء الذي بين السموات والأرض، ويملأُ ما يقدر بعد ذلك مما يشاءُ الله أن يملأً بحمده.

وذاك يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يملأً ما يخلقه الله مبدع السموات والأرض، والمعنى أن الحمد ملءُ ما خلقته وملءُ ما تخلقه بعد ذلك.

الثاني: أن يكون المعنى ملءُ ما شئت من شيء بعد يملؤه حمدك، أي يقدَّر مملوءاً بحمدك وإن لم يكن موجوداً.

ولكن يقال: المعنى الأول أقوى؛ لأن قوله: «مَا شِئْتَ مِنْ شَيْء بعد» يقتضي أنه شيء يشاؤه، ما شاءَ كان، والمشيئة متعلّقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له. فتأمله، لكنه إذا شاء كونه فله الحمد ملؤه، فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد، فلا بد أن يكونَ شيئاً موجوداً يملؤه حمده.

وأيضاً فإن قوله: «من شيء بعد» يقتضي أنه بعد ذلك من مخلوقاته ومن القائمة وما بعدها. ولو أُريد تقدير خلقه لقيل: وملء ما شئت من شيء مع ذلك، لأنّ المقدر يكون مع المحقق.

---

(١) رواه مسلم (٤٧١) في الصلاة، باب: اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، والترمذي (٢٦٦) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل إذا رفع رأسه من الركوع، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٨٧٨) في إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب: ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع.

وأيضاً فإنه لم يقل: ملء ما شئت أن يملأه الحمد، بل قال: ما شئت. والعبد قد حمد حمداً أخبر به، وإن ثناءَه ووصفه بأنه يملأُ ما خلقه الرب سبحانه وما يشاءُ بعد ذلك.

وأيضاً فقوله «وملء ما شئت من شيء بعد» يقتضي إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك، وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشيئة بملء المقدر، وقد لا تتعلق.

وأيضاً فإذا قيل «ما شئت من شيء بعد ذلك» كان الحمد مالئاً لما هو موجود يشاؤه الرب دائماً، ولا ريب أنّ له الحمد دائماً في الأُولى والآخرة، وأما إذا قدر ما يملؤه الحمد وهو غير الموجود فالمقدرات لا حدّ لها، وما من شيء منها إلاّ يمكن تقدير شيء بعده، وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الأعداد، ولو أُريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة، بل قيل «ملء ما لا يتناهى» فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجوداً مقدراً، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها؛ فهذا كله مما يشاؤه بعد.

وأيضاً فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته وإما ظاهرة في مخلوقاته، فأما المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها، فلا محامد فيه ألبتة، فالحمد لله يملأُ المخلوقات ما وجد منها ويوجد، هو حمد يتضمّن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته، وأما ما لا وجود له فلا محامد فيه ولا مذامّ، فجعل الحمد مالئاً له لما لا حقيقة له.

وقد اختلف الناسُ في معنى كون حمده يملأُ السموات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة على جهة التمثيل: أي لو كان أجساماً لملأَ السمٰوات

والأرض وما بينهما، قالوا: فإن الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تملأُ بها الأجسام، ولا تملأُ الأجسام.

والصواب أنه لا يحتاج إلى المالىء والمملوء، فإذا قيل: امتلأت الإناءُ ماءً وامتلأت الجَفْنَة[1] طعاماً فهذا الامتلاءُ نوع. وإذا قيل: امتلأت الدار رجالاً وامتلأت المدينة خيلاً ورجالاً فهذا نوع آخر. وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطوراً فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأت مسامعُ الناس حمداً أو ذمّاً لفلان فهذا نوع آخر.

وفي أثر معروف: «أهلُ الجنة من امتلأت مسامعُه من ثناءِ الناس عليه، وأهلُ النّار مَن امتلأت مسامعُه من ذَمِّ الناسِ له»[2].

وقال عمر بن الخطاب في عبد الله بن مسعود: كنيف[3] مُلِىءَ علماً.

ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا.

وكان يقال: ملأ ابنُ أبي الدنيا الدنيا علماً.

ويقال: صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق،وحبه قد ملأ القلوب، وبغض فلان قد ملأ القلوب، وامتلأ قلبه رُعْباً.

وهذا أكثر من أن تستوعب شواهده، وهو حقيقة في بابه.

وجعل الملءِ والامتلاءِ حقيقة للأجسام خاصةً تحَكُّم باطل ودعوى لا دليلَ عليها ألبتة، والأصل الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز

---

(١) «الجفنة»: القصعة.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٤) في الزهد، باب: الثناء الحسن، بلفظ: «أهلُ الجنة من ملأ اللَّهُ أذنيه من ثناء الناس خيراً، وهو يسمع، وأهلُ النار من ملأ أذنيه من ثناء الناس شراً، وهو يسمع».

(٣) قال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٢٠٥): وهو تصغير تعظيم لِلْكِنْفِ.

والاشتراك، وليس هذا موضع تقرير المسألة.

والمقصودُ أنَّ الربَّ أسماؤه كلّها حسنى، ليس فيها اسم سوءٍ، وأوصافه كلّها كمال، ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة، ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفة الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزّه عن الشبيه والمثال، ومنزّه عما يضادّ صفات كماله؛ فمنزّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنة والنوم والسهو والغفلة المضادّ للقيومية.

وموصوف بالعلم منزّه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة منزّه عن ضدها من العجز واللغوب[1] والإعياء، موصوف بالعدل منزّه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزّه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر منزّه عن أضدادهما، موصوف بالغنى التام منزّه عما يضاده بوجه من الوجوه.

ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكونَ غير محمود، كما يستحيل أن يكونَ غير قادر ولا خالق ولا حي، وله الحمد كلّه واجب لذاته، فلا يكون إلاّ محموداً كما لا يكون إلاّ إلٰهاً ورباً وقادراً.

فإذا قيل «الحمد كله لله» فهذا له معنيان:

أحدهما: أنه محمود على كلّ شيء، وهو ما يحمد به رسله أنبياؤه وأتباعهم، فذلك من حمده تبارك وتعالى بل هو المحمود بالقصد الأول، فهو المحمود أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وهذا كما أنه بكل شيء عليم، وقد علّم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه.

---

(١) «اللغوب»: التعب.

وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُك مِنَ الْخَيْرِ كُلِّه وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الشَّرِّ كُلِّهِ»[1].

وهو سبحانه له الملك، وقد آتى من الملك بعض خلقه، وله الحمد، وقد آتى من الحمد ما شاء. وكما أن ملك المخلوق داخل في ملكه، فحمده أيضاً داخل في حمده، فما من محمود يحمد على شيء، مما دقّ أو جلّ إلاّ والله المحمود عليه بالذات والأولوية أيضاً.

وإذا قال: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْد» فالمراد به أنت المستحق لكل حمد، ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

المعنى الثاني: أن يقال: «لَكَ الْحَمْد كُلُّهُ» أي: الحمدُ التام الكامل هذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة.

والتحقيق أنّ له الحمد بالمعنيين جميعاً، فله عموم الحمد وكماله، وهذا من خصائصه سُبحانه، فهو المحمودُ على كل حال، وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه، كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كلَّ شيء إلاّ هو، وليس الملك التام الكامل إلاّ له، وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد فإنهم يقولون: إنه خالق كل شيء وربه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء ألبتة، فله الملك كله.

والقدرية المجوسية يخرجون من ملكه أفعال العباد، ويخرجون سائر حركات الملائكة والجن والإنس عن ملكه.

وأتباع الرسل يجعلون ذلك كله داخلاً في ملكه وقدرته، ويثبتون

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده برقم (١٥٦٩) بلفظ: «اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم». وروى ابن ماجه (٣٨٤٦) نحوه، والحاكم (١/ ٥٢٢).

كمال الحمد أيضاً، وأنه المحمود على جميع ذلك وعلى كمال الحمد أيضاً، وأنه المحمود على جميع ذلك وعلى كل ما خلقه ويخلقه، لما له فيه من الحكم والغايات المحمودة المقصودة بالفعل.

وأما نفاة الحكمة والأسباب من مثبتي القدر فهم في الحقيقة لا يثبتون له حمداً كما لا يثبتون له الحكمة، فإن الحمد من لوازم الحكمة، والحكمة إنما تكون في حق من يفعل شيئاً لشيء فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله، فأما من لا يفعل شيئاً لشيء ألبتة فلا يتصوّر في حقه الحكمة. وهؤلاء يقولون: ليس في أفعاله وأحكامه لام التعليل[1]، وما اقترن بالمفعولات من قوى وطبائع ومصالح فإنما اقترنت بها اقتراناً عادياً، لا أن هذا كان لأجل هذا، ولا نشأ السبب لأجل المسبّب، بل لا سبب عندهم ولا مسبب البتة، إن هو إلاّ محض المشيئة وصرف الإرادة التي ترجح مثلاً على مثل، بل لا مرجح أصلاً، وليس عندهم في الأجسام وطبائع وقوى تكون أسباباً لحركاتها، ولا في العين قوة امتازت بها على الرِّجل يبصر بها، ولا في القلب قوة يعقل بها امتاز بها عن الظهر، بل خصّ سبحانه أحد الجسمين بالرؤية والعقل والذوق تخصيصاً لمثل على مثل بلا سبب أصلاً ولا حكمة، فهؤلاء لم يثبتوا له كمال الحمد، كما لم يثبت له أولئك كمال الملك، وكلا القولين منكر عند السلف وجمهور الأمة[2].

والملك والحمد في حقّه متلازمان، فكل ما شمله ملكه وقدرته شمل حمده، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما

---

(١) ينظر: كتاب «شفاء العليل» لابن القيم، الفصل الهام الذي عقده للحديث عن لام التعليل والحكمة في فعل رب العالمين عز وجل (ص ١٩١ ــ ٢٠٠).
(٢) طريق الهجرتين (٢٣٠).

يستحيل خروجُ شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته يستحيل خروجها عن حمده وحكمته، ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره، لينبّه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده، فهو محمودٌ على كلّ ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية، وحمد ثناءٍ ومدح، ويجمعهما التبارك، فتبارك الله يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالحمدُ أوسع الصفات وأعمّ المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره في ذرّات العالم وجزئياته وتفاصيل الأمر والنهي واسعة جداً؛ لأنَّ جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله حمد، وانتقامه من أعدائه حمد، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد، والخلق والأمر إنما قام بحمده، ووجد بحمده وظهر بحمده، وكأن الغاية هي حمده روح كلّ شيء، وقيام كل شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر، من الطرق الدالة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات معرفة أسمائه وصفاته، وإقرار العبد بأن للعالم إلٰهاً حياً جامعاً لكل صفة كمال، واسم حسن، وثناءٍ جميل، وفعل كريم، وأنه سبحانه له القدرة التامة والمشيئة النافذة والعلم المحيط والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملك الأعلى الذي لا يخرج عنه ذرة من الذرات، والغنى التام المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودة آثارها في الكائنات، والعزّة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلمات التامات النافذات؛ التي لا يجاوُزهنّ برٌّ ولا فاجر من جميع البريّات.

ومن أعظم نعمه علينا، وما استوجب حمد عباده له، أن يجعلنا عبيداً له خاصة، ولم يجعلنا ربّنا منقسمين بين شركاء متشاكسين[1]، ولم يجعلنا عبيداً لإله نحتته الأفكار، لا يسمع أصواتنا ولا يبصر أفعالنا ولا يعلم أحوالنا ولا يملك لعابديه ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا تكلّم قط ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى، ولا تُرفع إليه الأيدي ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا يرفع إليه العمل الصالح، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه ولا متصلاً به، ولا منفصلاً عنه، ولا محاذياً له ولا مبايناً، ولا هو مستوٍ على عرشه ولا هو فوق عباده[2].

وقد نبَّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، حمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرُّده بالإلٰهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليقُ بكماله، من اتّخاذ الولد والشّريك وموالاة أحدٍ من خَلْقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوّه وكبريائه، وحمد نفسه في الأُولى والآخِرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلويّ والسّفلي، ونبَّه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه.

فنوّع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرّقها أُخرى؛ ليتعرَّف إلى عباده ويُعرّفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبَّب إليهم بذلك ويحبّهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سَلَماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [الزمر: ٢٩].

(٢) طريق الهجرتين (ص ٢٣٠).

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٤][1].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١][2].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [الكهف: ١ ـ ٢][3].

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سبأ: ١].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [فاطر: ١][4].

---

(١) «رب العالمين»: مربِّيهم ومالكهم ومُدبِّر أمورهم.
«يوم الدين»: يوم الجزاء والحساب.

(٢) «جعل»: أنشأ وأبدع.
«يَعْدِلُون»: يُسَوُّون به غيره في العبادة.

(٣) «لم يجعل له عِوَجاً»: اختلالاً ولا اختلافاً ولا انحرافاً عن الحقّ ولا خروجاً عن الحكمة.
«قيِّماً»: مُستقيماً معتدلاً، أو بمصالح العباد.
«بأساً»: عذاباً آجلاً أو عاجِلاً.

(٤) «فاطر»: مبدع ومخترع وخالق.
«يزيد في الخلق ما يشاء»: قال الزمخشري في الكشاف (٣/ ٥٩٦): «الآية مطلقة تتناول كلَّ زيادة في الخلق: من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجراءة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأنّ =

وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠].

وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨][1].

وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم، والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]، وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلاّ بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلاّ بحمده،

= في مزاولة الأمور؛ وما أشبه ذلك ممّا لا يحيط به الوصف».
«حصافة»: إحكام. «ذلاقة»: حدّة وطلاقة. «اللباقة»: حذق.

(١) «حين تُظْهِرون»: تَدْخُلون في وقت الظهيرة.
وفي هاتين الآيتين تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات الدالّة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وعند الصباح. انظر: (تفسير ابن كثير ٣/٤٣٨).
وقال رسولُ الله ﷺ: «ألا أخبركم لِمَ سمَّى الله إبراهيم خليله الذي وفى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: ﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾» رواه أحمد.
وقال ﷺ: «من قال حين يصبح: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾ الآية، بكمالها أدرك ما فاته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته من ليلته». رواه أبو داود.

فقال عن أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، و: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٧٤ ــ ٧٥][1].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظُّلم، وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدُّنيا، مكذّبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لإلَهيته، مُفترين عليه، وهذا اعترافٌ منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقّه عليهم، وأنه غيرُ ظالم لهم، وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده، وإنما عُوقبوا بأفعالهم؛ وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية.

وتفصيلُ هذه الحكمة مِمَّا لا سبيلَ للعقول البشرية إلى الإحاطة به ولا إلى التّعبير عنه، ولكن بالجملة فكلُّ صفة عليا واسم حسن وثناءٍ جميلٍ، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عزّ وجلّ، على أكمل الوجوه وأتمّها وأدومها، وجميعُ ما يُوصَفُ به ويُذكر به ويُخْبَرُ عنه به فهو محامد له وثناءٌ وتسبيح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يُحصي أحدٌ مِن خَلْقِه ثناءً عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه، فله الحمدُ أولاً وآخراً حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، كما

---

(١) «يفترون»: يختلقونه من الباطل في الدنيا.

ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله ورفيع مجده وعلو جدّه[1]. فهذا تنبيهٌ على أحد نوعي حمده، وهو حمدُ الصِّفات والأسماء.

والنوع الثاني حمدُ النِّعم والآلاءِ، وهذا مشهودٌ للخليقة برّها وفاجرها، مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته لهم، وبرّه ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقادِ أسبابها وصَرْفها بعد وقوعها.

ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى مَن أراده بأحسن الألطاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصّته وعباده إلى سبيل دار السلام، ومدافعته عنهم أحسنَ الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام، وحبَّب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيَّدهم بروحٍ منه، وسمَّاهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذَكرهم قبل أن يذكروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبَّب إليهم بنعمه مع غناه، وتبغَّضَهم إليه بالمعاصي وفَقْرِهُمْ إليه.

ومع هذا كلّه فاتخذ لهم داراً، وأعدّ لهم فيها من كلّ ما تشتهيه الأنفسُ وتلذّ الأعينُ، وملأها مِن جميع الخيرات، وأودعها من النَّعيم والحبرة[2] والسرور والبهجة ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ

---

(١) «علوّ جدّه»: أي: جلاله، وعظمته.

(٢) «الحبرة»: حَبِرَ حَبَراً: ابتهج ونضر. فهو حَبِر، وهي حَبِرة.

على قلب بشر.

ثم أرسل إليهم الرُّسُلَ يدعونهم إليها، ثم يَسَّرَ لهم الأسبابَ الَّتي تُوصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضي منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جداً بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضمن لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشراً، وإن أساؤوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جَنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات، وذكّرهم بآلائه، وتعرَّف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمةً منه بهم وإحساناً لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عما نهاهم عنه حمايةً وصيانةً لهم لا بُخلاً منه عليهم، وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصَّاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصَرَف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال، ووسَّع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح له أبوابَ الهداية، وعرَّفهم الأسباب التي تُدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه، ويخاطبهم بألطف الخطاب ويسمِّيهم بأحسن أسمائهم كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣][1]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البقرة: ١٨٦]، فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ

(١) «أسرفوا»: تجاوزوا الحدّ في المعاصي.

﴿ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢][1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣][2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر: ٥][3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٧][4].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣][5].

---

(١) «الأرض فراشاً»: بساطاً للاستقرار عليها.
«السماء بناء»: سَقفاً مرفوعاً.
«أنداداً»: أمثالاً من الأوثان تعبدونها.
(٢) «فأنى تُؤفكون»: فكيف تُصرَفُون عن توحيده؟.
(٣) «فلا تغرَّنكم»: فلا تخدعنكم بالزخارف والملذّات.
«الغَرُور»: ما يَغُرُّ ويَخْدَعُ من شيطانٍ وغيره.
(٤) «ما غرَّك بربِّك»؟: ما خَدَعك وجرَّأك على عصيانه؟.
«فسوّاك»: جعل أعضاءك سويّة سليمةً.
«فعدلك»: جعلك معتدلاً متناسب الخَلْق.
(٥) «حقّ تقاته»: حقّ تقواه، أي اتّقاء حقاً واجباً.
«اعتصموا بحبل الله»: تمسَّكُوا بعهده ودينه، أو بكتابه. =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٨][1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة: ١][2]،

= «شفا حفرة»: طَرَف حفرة.

(١) «بطانة»: خواصّ يستبطنون أمركم.
«لا يألونكم خبالاً»: لا يُقَصِّرُون في إفساد أمركم.
«وَدُّوا ما عنتم»: أحبُّوا مشقّتكم الشديدة.
قال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٧٨ ـ ١٧٩):
«نهى اللَّهُ عزّ وجلّ المؤمنين بهذه الآية أن يتّخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دُخَلاء وَوُلجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم... وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتّخاذ أهل الكتاب كتبةً وأُمناء، وتسوّدوا بذلك عند الجَهَلة الأغبياء من الوُلاة والأمراء».

(٢) «أولياء»: أعواناً توادُّونهم وتُناصحونهم.
وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري ومسلم، فعن علي رضي الله عنه قال: بعثنا رسولُ الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن فيها ظعينة معها كتاب»، فقلنا لها: لتخرجن الكتاب أو لتلقينّ الثياب. فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسولَ الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناسٍ من المشركين ممّن بمكة، يخبر أمر النبي ﷺ، فقال: «ما هذا يا حاطب»؟ فقالَ: لا تعجل عليّ، إني كنتُ امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها قراباتهم، ولم يكن لي بمكة قرابة، فأحببتُ إذ فاتني ذلك أن أتَّخذ عندهم يداً، والله ما فعلتُه =

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤ ـ ٢٦][1].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤][2].

= شاكّاً في ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنه قد صدق». فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم». ونزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء...﴾. وانظر: (أسباب النزول للواحدي ص ٣٤٩).

(١) «لما يحييكم»: لما يصلحكم.

«يحول بين المرء وقلبه»: قال ابن عباس: يحول بين المرء وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان.

«فتنة»: أي اختباراً ومحنةً وابتلاء.

«يتخطّفكم الناس»: يستلبوكم ويصطلموكم بِسُرعة.

(٢) «ما قدروا الله»: ما عظّموه، أو ما عرفوه.

قال ابن القيم في كتابه (الأمثال في القرآن ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨): «حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل، ويتدبّره حقّ تدبّره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أنَّ المعبود أقلّ درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضرّه، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب؛ ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟! =

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠][1].

فَتَحْتَ هذا الخطاب: إني عاديت إبليس وطردته من سمائي وباعدته من قربي إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداءٌ لكم!.

فليتأمل اللبيبُ مواقعَ هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح، وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصحية البالغة، وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرمَ الوسائل وأفضلَ المنازل وأجلَّ العلوم والمعارف، قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧][2].

= ولا يقدرون على الانتصار من الذباب، وإذا سلبهم الذبابُ شيئاً ممّا عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خَلْق الذباب الذي هو من أضعف الحيوان، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما يسلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقلٌ عبادتها من دون الله تعالى؟!».

(١) «اسجدوا»: السجود: معناه في كلام العرب التذلّل والخضوع.
قال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٩٢):
«فإن قيل: فإذا لم يكن آدم أفضل من الملائكة فما الحكمة في الأمر بالسجود له؟ قيل له: إن الملائكة لمّا استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمَرَهم بالسجود لغيره ليريهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم. وقال بعضهم: عيَّرُوا آدم واستصغروه، ولم يعرفوا خصائص الصنع به، فأُمِرُوا بالسجود له تكريماً».
«فسجدوا»: أي امتثلوا ما أُمِروا به.

(٢) «وإن تشكروا»: الشكر في اللغة: الظهور. والشكر: الثناء على المحسن بما =

وقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣][(١)].

وكذلك اسمه الحميد، وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده يُوجب ألا ينسب إليه شر ولا سوء ولا نقص، لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته، فأسماؤه الحسنى تمنعُ نسبة الشر والسوء والظلم إليه، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء، والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب، فجعْلُه فاعلاً خيرٌ والمفعول شر قبيح، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، فهو خير وحكمة ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً، وهذا أمرٌ معقول في الشاهد، فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يُمدَحُ به، وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يذم به المحل، ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك حكمة وعدلاً وصواباً، وإنما السفه والظلم أن يضعها

= أوْلاكه من المعروف. وللعلماء أقوال كثيرة في الشكر منها: ما قاله سهل بن عبد الله: «الشكر: الاجتهادُ في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية».

وقال الشبلي: الشكر: التواضع والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة جبّار الأرض والسموات.

انظر: (تفسير القرطبي ١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

(١) طريق الهجرتين (ص ١٦٩).

في غير موضعها، فمن وضع العمامة على الرأس، والنعل في الرِّجْل، والكحل في العين، والزبالة في الكناسة، فقد وضع الشيء موضعه، ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلهما[1].

* * *

(١) شفاء العليل (ص ١٨٠).

الودود الشكور

الودود: المتودِّدُ إلى عباده بنعمه، الذي يودّ مَن تاب إليه وأقبل عليه، وهو الودود أيضاً أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود: الحبيب[1]، والتحقيق أنَّ اللفظَ يدلُّ على الأمرين، على كونه وادّاً لأوليائه ومودوداً لهم. فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم. فهو الحبيبُ المحبُّ لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود: ٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحبّ، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحبُّ التوّابين[2]، وإذا تاب إليه عبدُه أحبه ولو كان منه ما كان[3].

وهو الوَدُودُ يحبُّهم ويحبُّه ... أحبابُه والفضلُ للمنَّانِ
وهو الذي جعلَ المحبَّة في قلو ... بهم وجازاهم بحبٍّ ثانِ
هذا هو الإحسانُ حقاً لا معا ... وضةً ولا لتوقّع الشُّكْرَانِ[4]

---

(١) معجم غريب القرآن ص (٢٢٢).
(٢) ﴿إن الله يحب التوابين﴾ [البقرة: ٢٢٢].
(٣) التبيان ص (٥٩).
(٤) «الشكران»: مصدر للفعل شكر، والشكر لا يكون إلا عن يدٍ، والحمد يكون عن يدٍ وعن غير يد. والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل، قال الشاعر:
شكرتك إن الشكر حبل من التقى ... وما كل من أوليته نعمة يقضي=

لكنْ يحبُّ شكورَهم، وشكورُهُم لا لاحتيـــاجٍ منْـــهُ للشُّكـــران[1]
وهـو الشَّكـورُ فلـن يُضيِّـعَ سعيَهُـمْ لكــنْ يضــاعفُــه بــلا حُسبَـانِ[2]

وهذا تفسير لاسميه الكريمين (الودود والشكور)، وقد ورد كلّ منهما في الكتاب العزيز، فالودود ورد مرة مقترناً باسمه الرحيم في قوله تعالى من سورة هود على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود: ٩٠].

وورد مرة أخرى مقترناً باسمه الغفور في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [البروج: ١٤].

والودودُ مأخوذٌ من الوُدّ بضم الواو بمعنى خالص المحبة، وهو إمّا من فَعُول بمعنى فاعل، فهو سبحانه الوادّ أي المحبّ لأنبيائه وملائكته وعباده الصالحين، وإمّا من فعول بمعنى مفعول، فهو سبحانه المودودُ المحبوب لهم، بل لا شيء أحبّ إليهم ولا في كيفيتها، ولا في متعلّقاتها، وهذا هو الواجبُ أن تكونَ محبةُ الله في قلب العبد سابقةً لكلّ محبة، وغالبة لها، ويتعيَّنُ أن تكونَ بقيّةُ المحابّ تابعةً لها[3].

يقول العلامة الشيخ السعدي رحمه الله:

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله، ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته، فهو تعالى الذي أحبّ عبده، فجعل المحبةَ في قلبه، ثم لما

= أي: ليس كل من أوليته نعمة يشكرك عليها، وهو معنى بيت ابن القيم.

(١) شكره لعباده: مغفرته لهم.

(٢) شرح القصيدة النونية ص (٩٦).

(٣) ينظر جلاء الأفهام ص (١٨٦).

أحبّه العبدُ بتوفيقه جازاه الله بحبّ آخر، فهذا هو الإحسانُ المحضُ على الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسبب. ليس المقصود منها المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحةُ كلها عائدةٌ إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينمّيها ويقوّيها حتى وصلتْ في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميعُ المحابّ وتسليهم عن الأحباب، وتهوّن عليهم المصائبَ، وتلذّذ لهم مشقةَ الطاعات، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات؛ التي أعلاها محبة الله، والفوز برضاه، والأنس بقربه[1].

* * *

(١) شرح القصيدة النونية ص (٩٦).

الحـيُّ القيُّــوم

معنى اسمه «القَيّوم»: هو الذي قام بنفسه، فلم يحتج إلى أحد، وقام كلّ شيء به، فكلّ ما سواه محتاج إليه بالذات، وليست حاجته إليه معللة بحدوث ــ كما يقول المتكلمون ــ ولا بإمكان، كما يقول الفلاسفة المشّاؤون، بل حاجته إليه ذاتية، وما بالذات لا يعلّل.

وإنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ له مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كلّ شيء، وقائم على كلّ نفس، وأنه تعالى هو القائم بنفسه، المقيم لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، ولا يضل ولا ينسى. وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

فهو (الحيُّ القيّوم) الذي لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، مالك السموات والأرض؛ الذي لكمال ملكه لا يشفعُ عندَه أحدٌ إلا بإذنه، العالم بكلّ شيء، الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرّة إلا بإذنه، يعلم دبيبَ الخواطر في القلوب حيثُ لا يطلع عليها الملَك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطّلع عليه القلب[1].

ويُعلم من اسم الحي القيوم أنّ الحياة مستلزمة لجميع صفات

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١١).

الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كلّ كمال يضادّ نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي أثبت متكلِّمو أهل الإثبات له تعالى صفة السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما (القيُّوم) فهو مُتضمِّن كمال غناه وكمال قدرته؛ فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره؛ فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال والغِنى التام والقدرة التامة، فكأنَّ المستغيثَ بهما مستغيثٌ بكلّ اسم من أسماء الرب تعالى، وبكل صفة من صفاته، فما أَوْلَى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنّة تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإنالة الطلبات.

والمقصود أن الرحمة المستغاث بها هي صفة الرب تعالى لا شيء من مخلوقاته، كما أنّ المستعيذَ بعزته في قوله: «أعوذ بعزتك»(١) مستعيذٌ بعزّته التي هي صفته، لا بعزته التي خلقها يُعِزُّ بها عبادَه المؤمنين.

وهذا كله يقرّر قول أهل السنة: إن قول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات»(٢) يدلُّ على أن كلماته تبارك وتعالى غير مخلوقة؛ فإنه لا يُستعاذ بمخلوق.

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٣) في التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿وهو العزيز الحكيم﴾، وتعليقاً (١١/ ٥٤٥)، ومسلم (٢٧١٧) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوّذ من شرّ ما عمل، ومن شرّ ما لم يعمل.

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨) في الذكر والدعاء، باب: في التعوذ من سوء القضاء، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٧٨)، والترمذي (٣٤٣٧) في الدعوات، باب: ما جاء ما يقول إذا نزل منزلاً، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

وأما قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فهذه رحمة الصفة التي وسعت كلّ شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وسعتها عموم تعلّقها بكل شيء، كما أن سعةَ عِلمه تعالى عمومُ تعلقِه بكلٍّ معلوم[١].

قال ابن القيم نظماً:

وهو الحييُّ فليس يفضحُ عبدَه ... عند التَّجاهرِ منه بالعِصيَانِ
لكنَّه يُلقِي عليه سِتْرَه ... فهو السِّتيرُ وصاحبُ الغفرانِ

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في التعليق على هذين البيتين:

ورد في السنة وصفه تعالى بالحياء، كقوله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ حييٌّ يستحي من عبده إذا مدّ يديه إليه أن يردَّهما صِفْراً»[٢].

وكقوله عليه السلام في شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه: «أما أحدُهم فأقبلَ فأقبلَ اللَّهُ عليه، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله عز وجل منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عز وجل عنه»[٣].

وحياؤه تعالى وصفٌ يليقُ به، ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغيّر وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يُعاب أو يُذَمّ، بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عفوه وحلمه. فالعبدُ

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٤).

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٨) في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (٣٥٦٦) في الدعوات، باب (١٠٥) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٣٨٦٥) في الدعاء، باب: رفع اليدين في الدعاء، والحاكم (١/ ٤٩٧).

(٣) رواه البخاري (٦٦) في العلم، باب: من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومسلم (٢١٧٦) في السلام، باب: من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها، وإلا وراءهم.

يجاهره بالمعصية، مع أنه أفقرُ شيء إليه، وأضعفه لديه، ويستعين بنعمه على معصيته، ولكنَّ الرَّبَّ سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته عليه يستحي من هَتْك ستره وفضيحته، فيستره بما يهيئوه له من أسباب الستر، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إن الله عز وجل يُدني المؤمنَ فيضعُ عليه كَنَفَهُ، ثم يسألُه فيما بينه وبينه: ألم تفعلْ كذا يوم كذا؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك قال له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

وكذلك يستحي سبحانه من ذي الشيبة في الإسلام أن يُعذِّبه، ويستحي ممن يدعوه ويمدّ إليه يديه أن يردّهما خاليتين، وهو من أجل أنه حيي سِتّير يحبُّ أهل الحياء والستر من عباده، فمن ستر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة.

وإن من أمقت الناس عنده من بات على معصية والله يستره،ثم يصبح فيكشف ستر الله عليه. وقد توعّد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بأن لهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة[2]، وفي الحديث: «كُلُّ أمتي مُعافى إلا المجاهرين[3]»[4].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٠٧٠) في الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، ومسلم (٢٧٦٨) في التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ [النور: ١٩].

(٣) رواه البخاري (٦٠٦٩) في الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، ومسلم (٢٩٩٠) في الزهد والرقائق، باب: النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه.

(٤) طريق الهجرتين ص (٦٧).

الواحد الأحد

إنَّ مشهدَ الإلٰهية هو مشهدُ الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادةُ أن لا إلٰهَ إلاّ هو، وأن إلٰهيةَ ما سواه باطلٌ ومحال، كما أنَّ ربوبيةَ ما سواه كذلك، فلا أحدَ سواه يستحقُّ أن يُؤلَّه ويُعبَد، ويُصلَّى له ويسجد، ويستحقّ نهاية الحب مع نهاية الذّل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاعُ وحده على الحقيقة، والمألوه لغيره عذاب لصاحبها، وكلّ غنى لغيره فقر وضلال، وكلّ عزّ بغيره ذلّ وصَغار، وكلّ تكثّر بغيره قلة وفاقة.

فكما استحال أن يكونَ للخلق ربٌّ غيرُه فكذلك استحال أن يكونَ لهم إلٰهٌ غيره، فهو الذي انتهتْ إليه الرغباتُ، وتوجَّهتْ نحوه الطلباتُ.

ويستحيل أن يكون معه إلٰه آخر؛ فإنَّ الإلٰهَ على حقيقته هو الغنيّ الصَّمد ولا حاجةَ به إلى أحد، وقيام كلّ شيء به وليس قيامه بغيره، ومن المحال أن يحصلَ في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلٰهان لفسد نظامه أعظم فساد، واختلّ أعظم اختلال، كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كلّ منهما مستقلّ بالفعل، فإنَّ استقلالَهما يُنافي استقلالهما، واستقلال أحدهما يمنعُ ربوبيةَ الآخر، فتوحيدُ الربوبية أعظمُ دليلٍ على توحيد الإلٰهية.

وكذلك وقع الاحتجاجُ به في القرآن أكثر مما وقع بغيره؛ لصحَّة دلالته وظهورها وقبول العقول والفطر لها، ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية.

وكذلك عُبّادُ الأصنام يقرّون به وينكرون توحيد الإلٰهية، ويقولون:

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [صّ: ٥] مع اعترافهم بأنَّ الله وحدَه هو الخالقُ لهم وللسموات والأرض وما بينهما، وأنه المنفردُ بملك ذلك كلّه، فأرسل الله تعالى يذكّر بما في فطرهم الإقرار به من توحيده وحده لا شريك له، وأنهم لو رجعوا إلى فطرهم وعقولهم لدلّتهم على امتناع إلٰه آخر معه واستحالته وبطلانه، فمشهدُ الأُلوهية هو مشهدُ الحنفاء، وهو مشهدٌ جامع للأسماء والصفات، وحظُّ العباد منه بحسب حظّهم من معرفة الأسماءِ والصفات[1].

وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوام السمٰوات والأرض والخليقة بأن تؤلّه الإلٰه الحق، فلو كان فيهما إلٰه آخر غير الله لم يكن إلٰهاً حقّاً؛ إذ الإلٰهُ الحقّ لا شريكَ له ولا سَميَّ له ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كلّ الفساد بانتفاء ما به صلاحها؛ إذ صلاحها بتألّه الإلٰه الحق كما أنها لا توجد إلاّ باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستندَ في وجودها إلى رَبَّين متكافئين، فكذلك يستحيلُ أن تستندَ في بقائها وصلاحها إلى إلٰهين متساويين.

والله واحدٌ لا شريكَ له في ربوبيته ولا في إلٰهيته، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وليس له من يشركه في ذرّة من ذرّات ملكه، أو يخلفه في تدبير خلقه، أو يحجبه عن داعيه أو مؤمليه أو سائليه، أو يتوسط بينهم وبينه بتلبيس أو فرية أو كذب كما يكون بين الرعايا وبين الملوك، ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود وفسد العالم بأسره ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولو كان معه آلهة

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٨٧ ــ ٨٨).

أُخرى كما يقوله أعداؤه المبطلون، لوقع من النقص في التدبير وفساد الأمر كلّه ما لا يثبت معه حال، ولا يصلح عليه وجود.

إذا عرف هذا فاعلم أنَّ حاجةَ العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يُشركُ به شيئاً في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكّل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتَّعظيم والسجود والتقرب، أعظمُ من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تُقاس به؛ فإنَّ حقيقةَ العبد روحُه وقلبُه ولا صلاحَ لها إلا بإلٰهها الذي لا إله إلاّ هو، فلا تطمئنُّ في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحةٌ إليه كدحاً فملاقيته، ولا بُدَّ لها من لقائه، ولا صلاحَ لها إلا بمحبّتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها. ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقلُ من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعّم بهذا في وقت، ثم يُعذّب، ولا بُدَّ، في وقت آخر، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذّ، بل قد يؤذيه اتّصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يُؤْثر ذلك لما له في حكّها من اللذة، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حكّ الجرب، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجّة البالغة كما له النعمة السابغة.

والمقصود أن إله العبد الذي لا بُدَّ له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين، هو الإلٰه الحق الذي كلّ ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي

فوق كلّ ضرورة وأعظم من كل حاجة، لهذا قال إمام الحنفاء ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦][1] والله أعلم .

* * *

(١) طريق الهجرتين (ص ١١٠ ـ ١١١).

الصمد

لمّا كان سؤالُ الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونَيْلُه أشرفَ المواهب؛ علَّم اللَّهُ عبادَه كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمدَه والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وتوسّل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يردّ معهما الدعاء. ويؤيّدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابنُ حِبّان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما: حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلاّ أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفواً أحد. فقال: «والذي نفسي بيده! لقد سأل اللَّهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى» قال الترمذي: حديث صحيح(١).

فهذا توسُّل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابن عباس: العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، وفي رواية عنه: هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٨٨٨)، وأحمد (٥/ ٣٦٠)، والترمذي (٣٤٧٥) في الدعوات، باب: جامع الدعوات عن النبي ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب.

وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده[١].

وقال سعيد بن جبير: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله[٢].

* * *

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١/١٠٨)، وابن جرير في تفسيره (٣٠/٣٤٦).

(٢) المصدران السابقان.

الغني، الكريم

الله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسنٌ إلى عبده لا لدفع مضرّة، بل رحمةً وإحساناً، وجوداً محضاً؛ فإنه رحيمٌ لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته، كما أنه غنيٌّ لذاته، قادر لذاته، حيّ لذاته، فإحسانُه وجُوده وبرّه ورحمته من لوازم ذاته فلا يكون إلاّ كذلك، وأما العباد فلا يتصوّر أن يحسنوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبّوه ويعظّموه ليجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة، وذلك من تيسير الله وإذنه لهم به، فهو في الحقيقة وليّ هذه النعمة ومسديها ومجريها على أيديهم، ومع هذا فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من محبته سواءٌ أَحبُّوه لجماله الباطن أو الظاهر؛ فإذا أحبُّوا الأنبياءَ والأولياءَ فطلبوا لقاءَهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك، وكذلك من أحب إنساناً لشجاعته أو رئاسته أو جماله أو كرمه؛ فهو يحبُّ أَنْ ينالَ حظّه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبّ ذلك، وإن جلبوا له منفعة أو دفعوا عنه مضرّة ــ كمرض وعدو ــ ولو بالدعاءِ، فهم يطلبون العوضَ إذا لم يكن العملُ لله، فأجنادُ الملوك وعبيد المماليك، وأُجَراءُ المستأجر، وأعوان الرئيس، كلّهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد علم وهذب من جهة أخرى فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيه طبع عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه. وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه، إذ قسم بينهم معيشتهم في

الحياة الدنيا[1] ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً»[2].

* * *

(١) إشارة إلى الآية (٣١) سورة الزخرف: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

(٢) طريق الهجرتين ص (٨٧ ــ ٨٨).

الصَّبُــور

أما الصَّبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به، وأعظمهم تنزيهاً له بصيغة المبالغة، ففي الصحيحين من حديث الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السُّلمي، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ أصبرُ على أذى سمعه من الله عز وجل، يَدَّعُون له ولداً وهو يُعافيهم ويَرزُقهم»(١).

وفي أسمائه الحسنى (الصبور،) وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من الصَّابر والصَّبَّار. وصبره تعالى يفارق صبرَ المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة، منها: أنه عن قدرة تامة.

ومنها: أنه لا يخاف الغوث، والعبد إنما يستعجل الخوف الغوث.

ومنها: أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجهٍ ما.

وظهور أثر الاسم في العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم.

والفرق بين الصبر والحلم؛ أنَّ الصَّبْرَ ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم في صفات الرب تعالى أوسع من الصبر؛ ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا

---

(١) رواه البخاري (٧٣٧٨) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿إنَّ الله هو الرزّاق ذو القُوَّة المتين﴾، ومسلم (٢٨٠٤) في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لا أحدَ أصبرُ على أذى من الله عز وجل.

﴿٥١﴾ [الأحزاب: ٥١]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١٢].

وفي أثر «إنَّ حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»[(١)].

فإنّ المخلوقَ يحلم عن جهل، ويعفو عن عجز، والربُّ تعالى يحلم مع كمال علمه، ويعفو مع تمام قدرته، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى اقتدار، ولهذا كان في دعاء الكرب وصفه سبحانه بالحلم مع العظمة، وكونه حليماً من لوازم ذاته سبحانه.

وأما صبره سبحانه فمتعلّق بكفر العباد وشركهم ومسبّتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كلّه إلى تعجيل العقوبة، بل يصبرُ على عبده، ويمهله، ويستصلحه، ويرفق به، ويحلم عنه، حتى إذا لم يبق فيه موضع للصنيعة، ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم، ولا ينيب إلى ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنعم ولا من باب البلاء والنقم، أخذه أخذ عزيز مقتدر؛ بعد غاية الأعذار إليه، وبذل النصيحة له، ودعائه إليه من كل باب. وهذا كلّه من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصَّبر فإذا زال متعلّقه كان كسائر الأفعال التي توجد بوجود الحكمة وتزول بزوالها؛ فتأمله فإنه فرقٌ لطيف ما عثرت الحذَّاق بعشره،

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٣٦٤) بلفظ: «حملة العرش يتجاوبون بصوت حسن رخيم، يقول الأربعة: سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، ويقول الأربعة الآخرون: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك». وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٧٤) لابن المنذر وأبي الشيخ والبيهقي، موقوفاً على هارون بن رئاب. وهو ثقة عابد (تقريب التهذيب ٢/ ٣١١).

وقلّ من تنبّه له ونبّه عليه، وأشكل على كثير منهم هذا الاسم. وقالوا: لم يأت في القرآن، فأعرضوا عن الاشتغال به صفحاً، ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقّه؛ لعلموا أنَّ الرب تعالى أحقّ به من جميع الخلق، كما هو أحقّ باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحي وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأنّ التفاوتَ الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وسمعه وأسماعهم. وكذا سائر صفاته.

ولما علم ذلك أعرفُ خلقه به قال: «لا أحدَ أَصبَرُ على أذىً سمِعَه من الله»، فعلِمُ أربابِ البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزّة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه، فإنَّ مقابلةَ أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين، ومَنْ إحسانُه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش، ونسبته إلى كل ما لا يليق به، والقدح في كماله وأسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته، وتكذيب رسله عليهم السلام، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم، أمرٌ لا يصبر عليه إلا الصّبور الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

وإن العبدَ بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره. قال أبو علي: «فاز الصابرون بعزّ الدارين»؛ لأنهم نالوا من الله معيته. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣].

وهاهنا سر بديع وهو أنَّ مَن تعلّق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والرب تعالى هو الصَّبور، بل لا

أحد أصبر على أذى سمعه منه. وقد قيل: إن الله سبحانه أوحى إلى داود: «تخلَّقْ بأخلاقي فإن من أخلاقي أني أنا الصبور».

والرب تعالى يحبّ أسماءه وصفاته، ويحبّ مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد؛ فإنه جميل يحب الجمال، عفو يحبّ أهل العفو، كريم يحبّ أهل الكرم، عليم يحبّ أهل العلم، وتر يحبّ أهل الوتر، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحبّ الصابرين، شكور يحبّ الشاكرين.

وإذا كان سبحانه يحبُّ المتّصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتّصاف، فهذه المعيةُ الخاصَّةُ عبّر عنها بقوله: «كنتُ له سمعاً، وبصراً، ويداً، ومؤيّداً»[1].

ومن أقسام الصبر: الصبر مع الله، وجعلوه أعلى أنواع الصبر، وقالوا: هو الوفاء، ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يُفسِّره بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت؛ وهي الصبر على أقضيته، والصبر على أوامره، والصبر عن نواهيه، فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه، يدور معها حيث دارت فيكون دائماً من الله لا مع نفسه، فهو مع الله بالمحبة وبالموافقة، فهذا المعنى حقّ، ولكن مداره على الصبر على الأنواع المتقدِّمة، وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع

---

(١) جزء من حديث رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء رقم (١)، والحلية (٨/ ٣١٩) وقال: غريب من حديث أنس، والطبراني كما في (جامع العلوم والحكم ص ٣٣٨)، وابن مردويه والحكيم وابن عساكر. (كنز العمال ١١٦٠). وفي إسناده: الحسن بن يحيى الخشني؛ صدوق، كثير الغلط. (تقريب التهذيب ١/ ١٧٢). وصدقة الدمشقي؛ ضعيف. (تقريب التهذيب ١/ ٣٦٦). وقال الهيثمي: وهشام ــ أي الكناني ــ لا يُعرف. (جامع العلوم ص ٣٣٨).

الصبر، فهذا حقٌّ ولكنَّ جعلَه قسماً رابعاً من أقسام الصبر غيرُ مستقيم.

واعلم أنَّ حقيقةَ الصَّبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه، وهو ألاّ يروغَ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا، فحقيقةُ هذا هو الاستقامة إليه، وعكوف القلب عليه.

وزاد بعضهم قسماً آخر من أقسامه وسمّاه: الصبر فيه، وهذا أيضاً غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة، ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له، وهذا كما يقال: فعلت هذا في الله وله، كما قال خُبيب[1]:

وذلك في ذات الإله وإنْ يَشَأْ ... يُبارِكْ على أَوْصَال شِلْوٍ مُمزَّعِ[2]

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨].

وفي حديث جابر أنَّ اللَّهَ تعالى لما أحيا أباه وقال له: «تمنَّ، قال: يا رب أن ترجعني إلى الدنيا حتى أُقْتَلَ فيك مرةً ثانية»[3].

وقال ﷺ: «ولقد أوذيتُ في الله وما يُؤْذَى أحد»[4]

---

(١) هو خُبيب بن عدي الأوسي الأنصاري: صحابي، شهد بدراً، واستُشهد في عهد النبي ﷺ. (الإصابة ١/ ٤١٨).

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها خُبيب حين بلغه أن المشركين قد اجتمعوا لصلبه. قال ابن هشام: وبعضُ أهل العلم بالشعر يُنكرها له. «السيرة النبوية ٣/ ١٨٥).
«أوصال»: مفاصل. «شِلْو». الشِّلْو: العضو من أعضاء اللحم، وأشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد البِلى والتَّفَرُّق. «مُمزَّع»: مُقطَّع.

(٣) رواه الترمذي (٣٠١٠) في تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم (٣/ ٢٠٤) وصححه. وذكره ابن حجر في (فتح الباري ٦/ ٣٢).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٧٢) في صفة القيامة، باب (٣٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (١٥١) في المقدمة، باب: في فضائل أصحاب=

وهذا يُفهم منه معنيان:

أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله. وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره، كما في الحديث «تعلمتُ فيك العلم»[1].

والثاني: أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره، وغالب ما يأتي قولهم «ذلك في الله» في هذا المعنى[2].

وقال ابن القيم نظماً:

وهو الصَّبورُ على أذى أعدائه شتموه بل نَسبُوه للبُهتَان
قالوا: له وَلَدٌ، وليسَ يُعيْدُنا شَتْماً وتكذيباً من الإنسان
هذا وذاك بسمعه وبعلمه لو شاءَ عاجلَهم بكلِّ هوان
لكنْ يعافيْهم ويرزقُهم وهُمْ يؤذونه بالشِّرْكِ والكُفْرَان

وقد شرح الشيخ عبد الرحمن السعدي هذه الأبيات بقوله: ومن أسمائه الحسنى «الصبور»، وهو مبالغة من صَابِرَ، ومعنى الصبر: حَبْسُ النفس على ما تكره، وضده الجزع، وهو في حقّ الله تعالى معناه حلمه على أعدائه مع ارتكابهم ما يُوجِب غضبه؛ من شتمه وتكذيبه وتكذيب رسله ومعاندتهم لآياته ومحاربتهم لدينه وشرعه، وهو لا يزال يتابع عليهم نعمه ويدرّ عليهم أخلاف رزقه، وصبْرُه تعالى أكملُ صبر؛ لأنه عن كمال قدرة، وكمال غنى عن الخلق، وكمال رحمة وإحسان.

وقد فسَّر المؤلف هذا الاسم الكريم بما ورد به الحديث الصحيح من

= رسول الله ﷺ، وأحمد (٣/ ١٢٠ و٢٨٦).

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، والنسائي (٦/ ٢٤) في الجهاد، باب: من قاتل ليقال فلان جريء، وأحمد (٢/ ٣٢٢)، ولفظه: «تعلمتُ العلم وعلَّمتُه وقرأتُ فيك القرآن».

(٢) عدة الصابرين ص (٢٧٤).

قوله ﷺ: «لا أحدَ أصبرُ على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد، وهو يعافيهم ويرزقهم»[(١)].

وبما ثبت أيضاً في الصحيح من قوله تعالى في الحديث القدسي: «كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدَني كما بدأني، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: إنّ لي ولداً، وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[(٢)].

ومن أجل أنه سبحانه صبور فهو يحبُّ الصابرين من عباده، ويعينهم في كلٍّ أمورهم، وسيوفيهم أجرهم بغير حساب[(٣)].

* * *

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٩٨٤) في التفسير، باب: سورة ﴿قل هو الله أحد﴾، والنسائي (٤/ ١١٢) في الجنائز، باب: أرواح المؤمنين، وأحمد (٢/ ٣١٧).

(٣) شرح القصيدة النونية ص (٨٨).

الجميـل

ومن أسمائه الحسنى: الجميل، ومَن أحقّ بالجمال مِمَّنْ كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنعه، فله جمالُ الذات، وجمالُ الأوصاف، وجمالُ الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلّها حسنى، وصفاته كلّها كمال، وأفعاله كلّها جميلة، فلا يستطيعُ بشرٌ النظرَ إلى جلاله وجماله في هذه الدار[1]، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدن أَنْسَتْهُم رؤيتُه ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيءٍ غيره.

ولولا حجاب النور على وجهه لأحرقت سُبُحات وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه، كما في صحيح البخاري من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إِنَّ اللَّهَ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عملُ الليل قبل عمل النهار وعملُ النهار قبل عمل الليل، حِجَابُه النور، لو كشفه لأحرقتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بَصَرُهُ مِن خَلْقِه»[2].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ليس عند ربّكم ليل ولا

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣].

(٢) لم نجده في صحيح البخاري، بل رواه مسلم (١٧٩) في الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام»، وابن ماجه (١٩٦) في هذه المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وأحمد (٤/ ٣٩٥ و٤٠١ و٤٠٥).

«القسط»: الميزان. «سبحات وجهه»: السبحات: جمع سُبْحة، وفُسِّر سبحات الوجه بجلالته.

نهار، نورُ السمٰوات من نور وجهه، وإن مقداركلّ يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس؛ فتعرض عليه أولَ النهار، أو اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات، فيطّلع منها على بعض ما يكره فيغضبه ذلك، فأول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش؛ يجدونه يثقل عليهم، فيسبّحه الذين يحملون العرش، وسرادقات العرش، والملائكة المقرّبون، وسائر الملائكة، وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى شيء إلاّ الثّقلين: الجن والإنس، فيسبّحونه ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمٰن رحمة، فتلك ست ساعات، ثم يُؤتى بما في الأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات؛ فيصوِّركم في الأرحام كيف يشاء، لا إلٰه إلاّ هُو العزيز الحكيم، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلهم ثلاث ساعات، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم، ثم قرأ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩﴾ [الرحمٰن: ٢٩] ثم قال عبد الله: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى.

رواه عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري، عن ابن مسعود رضي الله عنه، رواه الحسن بن إدريس، عن خالد بن الهياج، عن أبيه، عن عباد بن كثير، عن جعفر بن الحارث، عن معدان، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليل، وإن السموات مملوءاتٌ نوراً من نور الكرسيِّ، وإن يوماً عند ربك اثنتا عشرة ساعة، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك، وإن أولَ من يعلم بغضبه حملةُ العرش؛ يرونه يثقل عليهم فيسبحون له، ويسبح له سرادقات العرش في ثلاث ساعات من النهار، حتى يمتلىءَ ربنا رضاً، فتلك ست ساعات من النهار، ثم يأمر بأرزاق

الخلائق فيعطي من يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك تسع ساعات. ثم يرفع إليه أرحام كلّ دابة فيخلق فيها ما يشاء، ويجعل المدة لمن يشاء من ثلاث ساعات من النهار، فتلك اثنتا عشرة ساعة، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمٰن: ٢٩] هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى[١].

وفي دعاء النبيّ ﷺ الذي دعا به يومَ الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة أن يحلّ عليّ غضبُك، أو ينزلَ عليّ سُخْطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[٢].

وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلّها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الزمر: ٦٩][٣].

* * *

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٣٧) ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٧) مختصراً، وقال: هذا موقوف وراويه غير معروف.

(٢) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/ ٣٥): رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. وذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٦١).

(٣) روضة المحبين (ص ٤٠٢).

الـرفيـــق

قال ابن القيّم نظماً:

وهو الرفيقُ يحبُّ أهلَ الرِّفْقِ بَلْ　　يُعطيهـمُ بـالـرِّفـقِ فـوقَ أمـان

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي في شرحه لهذا البيت:

ومن أسمائه سبحانه (الرفيق)، وهو مأخوذٌ من الرِّفق؛ الذي هو التَّأنِّي في الأمور والتدرُّج فيها، وضدّه العنف؛ الذي هو الأخذُ فيها بشدّة واستعجال.

وتفسيرُ المصنف لهذا الاسم الكريم مأخوذٌ من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ أهلَ الرفق، وإنَّ اللَّهَ يُعطي على الرِّفق ما لا يُعطي على العُنْفِ»(١).

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٢)، وأبو داود (٤٨٠٧) في الأدب، باب: في الرفق، وأحمد (٤/ ٨٧). من حديث عبد الله بن مغفل.

ورواه مسلم (٢٥٩٣) في البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق. من حديث عائشة.

ورواه ابن ماجه (٣٦٨٨) في الأدب، باب: الرفق، وابن حبان في صحيحه (٥٥٠)، من حديث أبي هريرة.

ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٤١٥) من حديث علي.

ورواه البزار في كشف الأستار (١٩٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠٦٥) من حديث أنس.

وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ١٩): رواه الطبراني، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، وثقه أبو حاتم الرازي، وضعّفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات.

فاللَّهُ تعالى رفيقٌ في أفعاله؛ حيث خَلَقَ المخلوقاتِ كلَّها بالتدريج شيئاً فشيئاً بحسب حكمته ورفقه، مع أنه قادرٌ على خلقها دَفعةً واحدة وفي لحظة واحدة.

وهو سبحانه رفيقٌ في أمره ونهيه، فلا يأخذ عبادَه بالتَّكاليف الشاقة مرةً واحدة؛ بل يتدرج معهم من حال إلى حال، حتى تألفها نفوسُهم، وتأنس إليها طباعُهم، كما فعل ذلك سبحانه في فرضية الصيام وفي تحريم الخمر والربا ونحوها.

فالمتأنِّي الذي يأتي الأمورَ برفق وسكينة اتباعاً لسنن الله في الكون، واقتداء بهدي رسول الله ﷺ تتيسَّرُ له الأمور وتَذلَّلُ الصعابُ، لا سيما إذا كان ممن يتصدَّى لدعوة الناس إلى الحق؛ فإنه مضطرٌّ إلى استشعار اللين والرّفق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤][1].

* * *

(١) شرح القصيدة النونية (ص ٩٣).

المغيث

قال ابن القيّم نظماً:

وهو المغيثُ لكلِّ مخلوقاته وكذا يجيبُ إغاثةَ اللهفان

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي في شرحه لهذا البيت:

المغيث اسم فاعل من الغوث، وهو تفريجُ الكرب وإزالة الشدة، فهو سبحانه المغيثُ لجميع المخلوقات عندما تتعسّر أمورها، وتقع في الشدائد والكربات. وفي الحديث: «يعجب ربّنا من قنوطِ عباده وقرب خَيْرِه، ينظرُ إليكم أزلين قنطين، يظلُّ يضحك يعلمُ أنَّ فَرَجَكُم قريبٌ»[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ [الشورى: ٢٨].

وهو الذي يجيبُ إغاثة اللهفان[2]، أي: دعوةَ مَن دعاه في حال اللهف والشدة والاضطرار، فمن استغاثَ به سبحانه أغاثه من لهفته، وأنقذه من شدَّته[3].

* * *

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٥٩) من حديث أبي رزين. و«أزلين»: من الأَزْل، وهو الشدّة والضيق. وقد أَزَل الرجلُ: أي: صار في ضيق وجَدْب.

(٢) في الحديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، والله يحب إغاثة اللهفان». رواه البيهقي وابن عبد البر.

(٣) شرح القصيدة النونية (ص ٩٦).

الباب الثالث

دلالة أسماء الله الحسنى

الفصل الأول: الاسم والمسمّى.

الفصل الثاني: معرفة الصفات والنعوت.

الفصل الثالث: طريقة القرآن الكريم في ورود أسماء الله تعالى.

الفصل الرابع: معاني الإضافة في قوله: ﴿رب الناس * ملك الناس * إله الناس﴾.

الفصل الخامس: الحكمة في اقتران أسماء الله تعالى، وختم الآيات بها.

الفصل الأول

الإسم والمسمّى

الأسماء قوالب للمعاني:

لمّا كانت الأسماءُ قوالبَ للمعاني ودالّة عليها، اقتضت الحكمةُ أن يكون بينها وبينها ارتباطٌ وتناسبٌ، وألاّ يكون معها بمنزلة الأجنبي المحض، الذي لا تعلّق له بها، فإن حكمةَ الحكيم تأبى ذلك، والواقعُ يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثيرٌ في المسمّيات، وللمسمّيات تأثر عن أسمائها في الحسن والقبح والخفة والثقل واللطافة والكثافة، كما قيل:

وقلَّ إن أبصرتْ عيناك ذا لقبٍ ... إلا ومعناه إن فكرتَ في لقبه

وكان ﷺ يستحبُّ الاسم الحسن، وأَمَر إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسم، حسن الوجه، وكان يأخذُ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة، وكان يكره الأمكنة المنكرة الأسماء، ويكره العبور فيها كما مرَّ في بعض غزواته بين جبلين، فسأل عن اسميهما، فقالوا: فاضح، ومخز، فعدل عنهما ولم يجُزْ بينهما.

ولما كان بين الأسماء والمسمّيات من الارتباط والتناسب والقرابة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها، وما بين الأرواح والأجسام، عبر العقل من كلّ منهما إلى الآخر.

اقتضاء الاسم لمسمّاه:

ولمّا كان الاسمُ مقتضياً لمسمّاه، ومؤثراً فيه، كان أحبّ الأسماء

إلى الله ما اقتضى أحبّ الأوصاف إليه كعبد الله وعبد الرحمن[1]، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن، أحبّ إليه من إضافتها إلى غيرهما، كالقاهر، والقادر. فعبد الرحمن أحبّ إليه من عبد القادر، وعبد الله أحبّ إليه من عبد ربه، وهذا لأنّ التعلقَ الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبوديةُ المحضة، والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة؛ فبرحمته كان وجوده، وكمال وجوده، والغاية التي أوجده لأجلها أن يتألّه له وحده محبةً، وخوفاً، ورجاءً، وإجلالاً، وتعظيماً؛ فيكون عبد الله، وقد عبده لما في اسم الله من معنى الإلهية التي تستحيل أن تكون لغيره، ولما غلبت رحمته غضبه، وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب، كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر.

فإن قيل: فالاسم هو المسمّى أو غيره؟ قيل: طالما غلط الناس في ذلك، وجهلوا الصواب فيه فالاسم يراد به المسمَّى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى[2]. فإذا قلت: قال الله كذا، واستوى الله على عرشه، وسمع الله، ورأى، وخلق، فهذا المرادُ به المسمّى نفسه. وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحمن من أسماء الله، والرحمن وزنه فعلان، والرحمن مشتق من الرحمة، ونحو ذلك، فالاسم ـ هاهنا ـ للمسمَّى، ولا يقال غيره؛ لما في لفظ الغير من الإجمال، فإن أريدَ بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحقٌ، وإن أريدَ أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسماً، أو حتى سمّاه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا

---

(١) قال ﷺ: «إن أحبَّ أسمائكم إلى الله: عبدُ الله وعبدُ الرحمن» رواه مسلم (٢١٣٢).

(٢) انظر المقصد الأسنى للغزالي (ص ٢٩).

من أعظم الضلال والإلحاد، فقوله في الحديث: «سمَّيتَ به نفسك»[1] ولم يقل: خلقته لنفسك، ولا قال: سمّاك به خلقك، دليل على أنه سُبحانه تكلّم بذلك الاسم، ويسمّي به نفسه، كما سمّى نفسه في كتبه التي تكلّم بها حقيقة بأسمائه[2].

صفاته تعالى داخلة في مسمّى اسمه:

إنَّ صفات الرب ـ جلَّ جلاله ـ داخلةٌ في مسمَّى اسمه، فليس اسمه «الله»، و«الرب»، والإلٰه» أسماء لذات مجردة، لا صفة لها ألبتة، فإن هذه الذات المجردة وجودها مستحيل، وإنما يفرضها الذهنُ فرض الممتنعَات، ثم يحكم عليها. واسم «الله» سبحانه «والربّ»، «والإلٰه» اسمٌ لذاتٍ لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال، كالعلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والبقاء، والقدم، وسائر الكمال الذي يستحقُّه اللَّهُ لذاته، فصفاته داخلة في مسمَّى اسمه، فتجريد الصفات عن الذات، والذات عن الصفات: فرض وخيال ذهني لا حقيقة له، وهو أمرٌ اعتباري لا فائدة فيه، ولا يترتب عليه معرفة، ولا إيمان، ولا هو علم في نفسه[3].

كلامه تعالى داخل في مسمّى اسمه:

وكلامه تعالى داخلٌ في مسمّى اسمه، فالله تعالى اسمُ الذات الموصوفة بصفات الكمال، ومن تلك الصفات: صفة الكلام، كما أن علمه، وقدرته، وحياته، وسمعه، وبصره غير مخلوقة، وإذا كان القرآن

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩١).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٧) وشفاء العليل (٢٧٦ ـ ٢٧٧).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٢).

كلامه ــ وهو صفة من صفاته ــ فهو متضمِّنٌ لأسمائه الحسنى، فإذا كان القرآنُ غيرَ مخلوق، ولا يقال: إنه غير الله، فكيف يقال: إن بعضَ ما تضمنه ــ وهو أسماؤه ــ مخلوقة، وهي غيره؟! فقد حصحص الحقُّ بحمد الله، وانحسم الإشكال.

وإن أسماءه الحسنى التي في القرآن من كلامه، وكلامُه غير مخلوق، ولا يقال: هو غيره، ولا هو هو، وهذا المذهبُ مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون: أسماؤه تعالى غيره، وهي مخلوقة، ولمذهب من ردّ عليهم ممن يقول: اسمه نفس ذاته لا غيره، وبالتفصيل تزول الشُّبَهُ، ويتبيَّنُ الصوابُ، والحمد لله[(١)].

التّرادف والتّباين في أسمائه الحسنى:

اختلف النُّظّارُ في هذه الأسماء: هل هي متباينةٌ نظراً إلى تباين معانيها، وأن كلَّ اسم يدلُّ على معنى غير ما يدلُّ عليه الآخر، أم هي مترادفة؛ لأنها تدلُّ على ذات واحدة، فمدلولُها لا تعدُّد فيه، وهذا شأن المترادفات؟ والنزاع لفظي في ذلك.

والتحقيق أن يقال: هي مترادفةٌ بالنظر إلى الذات، متباينة بالنظر إلى الصفات، وكلّ اسم منها يدلُّ على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة، على أحدهما وحده بالتضمُّن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام[(٢)].

معرفة المثل الأعلى:

ليس في الدنيا ممّا في الآخرة إلا الأسماء والصفات، ولم يمنعهم

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٨).

(٢) جلاء الأفهام (٩٦).

عدمُ النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك.

فهكذا الأسماء والصِّفات لم يمنعهم انتفاءُ نظيرها ومثالها من فَهْم حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها، وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها، وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته الله تعالى لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن.

أحدها: قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

الثالث: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

فنفى سبحانه وتعالى المِثْل عن هذا المثل الأعلى، وهو ما في قلوب أهل سَمَواتِه وأرضه من معرفته، والإقرار بربوبيته، وأسمائه، وصفاته، وذاته.

فهذا المثلُ الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون، وقامت شواهدُه في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة بالكتب الإلهية، المضبوطة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بثبوته: العقل، والسمع، والفطرة.

فإذا قال المثبت: يا الله! قام بقلبه: ربٌّ قيُّوم قائم بنفسه، مستوٍ على عرشه، مكلِّم، متكلِّم، سامع، قدير، مريد، فعّال لما يريد، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حاجات السَّائلين، ويفرِّج عن المكروبين. ترضيه

الطاعات، وتغضبه المعاصي. تعرج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده[1].

• • •

الفصل الثاني

معرفة الصفات والنعوت

الفرق بين الصفة والنعت من وجوه ثلاثة[2]:

أحدها: أن النعت يكون بالأفعال التي تتجدَّد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الزخرف: ١٠ ــ ١٢] ونظائر ذلك.

والصفة هي الأمور الثابتة اللازمة للذات. كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ

---

(١) الصواعق المرسلة (ص ٦٤).

(٢) صرّح الجوهري والفيومي وغيرهما بترادف الوصف والنعت، وقال ابن الأثير: النَّعت وصف الشيء بما فيه من حسن، والوصف يقال في الحَسن والقبيح. وقال ثعلب: النعت ما كان خاصاً بمحلٍّ من الجسد، والصفة للعموم، كالعظيم والكريم، فالله تعالى يُوصف ولا ينعت.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٣] إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤].

الفرق الثاني: أن الصفات الذاتية لا يُطلق عليها اسم النعوت؛ كالوجه، واليدين، والقدم، والأصابع. وتسمّى صفات. وقد أطلق عليها السلفُ هذا الاسم، وكذلك متكلّمو أهل الإثبات، سمّوها صفات.

فالمقصودُ: إطلاقُ هذه الإضافات عليه سبحانه، ونسبتها إليه، والإخبار عنه بها، منزّهةً عن التمثيل والتعطيل، سواء سُميت صفاتٍ، أو لم تسمّ.

الفرق الثالث: أن النعوت ما يظهر من الصفات ويشتهر، ويعرفه الخاص والعام، والصفات: أعمّ، فالفرق بين «النعت» و «الصفة» فرق ما بين الخاص والعام. ومنه قولهم في تحلية الشيء: نَعْتُهُ كذا وكذا؛ لما يظهر من صفاته.

وقيل: هما لغتان، لا فرق بينهما. ولهذا يقول نحاة البصرة: «باب الصفة» ويقول نحاة الكوفة: «باب النعت» والمراد واحد. والأمر قريب[1].

اشتقاق اسم الجلالة:

أظهر الألفاظ لفظ الله، وقد اختلف الناسُ فيه أعظم اختلاف: هل هو مشتق أم لا؟ وهل هو مشتق من التألُّه أو من الوَلَه أو من لاه إذا احتجب[2]؟

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

(٢) قال ابن القيم في الكافية الشافية حول اسم (الله) تعالى:

وخلافهم فيه كثير ظاهر ... عربي وضع ذاك أم سرياني=

إن جميع أهل الأرض علمائهم وجهلائهم، ومن يعرف الاشتقاق ومن لا يعرفه، وعربهم وعجمهم يعلمون أن (الله) اسم لرب العالمين خالق السمٰوات والأرض؛ الذي يحيي ويميت، وهو ربُّ كل شيء ومليكه، فهم لا يختلفون في أن هذا الاسم يُرادُ به هذا المسمّى، وهو أظهرُ عندهم، وأعرف، وأشهر من كل اسم وُضع لكل مسمّى، وإن كان الناسُ متنازعين في اشتقاقه، فليس ذلك بنزاع فَهْمٍ في معناه.

أما اشتقاقه فالقول الصَّحيحُ أنَّ (الله) أصله: الإِله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلاّ من شذَّ منهم[1]. وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العُلى[2].

اشتقاق اسم الله تعالى:

زعم السُّهيلي وشيخه أبو بكر بن العربي أنَّ اسمَ الله غير مشتق؛ لأنَّ

= وكذا اختلافهم أمشتقّاً يرى ... أم جامداً قولان مشهوران

والأصل ماذا فيه خلف ثابت ... عند النحاة وذاك ذو ألوان

هذا ولفظ الله أظهر لفظة ... نطق اللسان بها مدى الأزمان

(١) لسيبويه رأيان في اشتقاق لفظ الجلالة اعتمد ابن القيم أقواهما.
يرى سيبويه في الجزء الأول (ص ٣٠٩) أن أصله (أله) قال: وكان الاسم ـ والله أعلم ـ أله، فلما أدخل فيه الألف واللام حذفوا الألف، وصارت الألف واللام خلفاً منهما، وفي الجزء الثاني (ص ١٤٤) يرى أن أصل الاسم فيه: لاه. قال: كما حذفوا اللامين من قولهم: لاهِ أبوك، حذفوا لام الإضافة واللام الأخرى، ليخففوا الحرف على اللسان وذلك ينوون والمعروف أن هذا الحذف لضرورة، فيبقى الرأي الأول هو الوجه وانظر كتاب سيبويه (١/ ٣٠٩) و (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥)، المقتضب (٤/ ٢٤٠)، المخصص (١٧/ ١٤٣)، الخزانة (٤/ ٣٤١ ـ ٣٤٢).

(٢) الصواعق المرسلة (ص ٩٢) وبدائع الفوائد (٢/ ٢٤٩).

الاشتقاق يستلزمُ مادة يُشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق. ولا ريبَ أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمدٌّ من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دالّ على صفة له تعالى، وهي: الإلٰهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم، والقدير، والغفور، والرحيم، والسَّميع، والبصير، فإنَّ هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمةٌ، والقديم لا مادّة له، فما كان جوابُكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسمه الله، ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنَّها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولِّدة منها، تَولُّد الفرع من أصله، وتسمية النّحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً ليس معناه أن أحدهما تولَّد من الآخر، وإنما هو باعتبار أنّ أحدهما يتضمّن الآخر وزيادة.

وقول سيبويه[1]: إنَّ الفعلَ أمثلة أُخذت من لفظ أحداث الأسماء هو بهذا الاعتبار، لا أنَّ العرب تكلَّموا بالأسماء أولاً، ثم اشتقوا منها الأفعال، فإنَّ التخاطبَ بالأفعال ضروري كالتخاطب بالأسماء، لا فرق بينهما، فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي، وإنما هو اشتقاق تلازم سمّى المتضمِّن (بالكسر) مشتقاً، والمتضمَّن (بالفتح) مشتقاً منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى[2].

معاني ﴿سبحانك اللهم﴾:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ

---

(١) انظر: الكتاب (١/ ٣).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ٢٢ ــ ٢٣).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: ٩ ـ ١٠].

عن ابن جريج أن قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ قال: إذا مرّ بهم الطير يشتهونه قالوا: ﴿سبحانك اللهم﴾ وذلك دعواهم، فيأتيهم المَلك بما اشتهوا فيسلّم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ قال: فإذا أكلوا حمِدوا الله ربهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

وعن قتادة قوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ يقول: ذلك دعاؤهم فيها، وتحيتهم فيها سلام.

وقال الأشجعي: سمعت سفيان الثوري يقول: إذا أرادوا الشيء قالوا: ﴿سبحانك اللهم﴾ فيأتيهم ما دعوا به.

ومعنى هذه الكلمة تنزيه الربّ تعالى، وتعظيمه، وإجلاله عمّا لا يليق به.

وذكر سفيان عن عثمان بن موهب: سمعت موسى بن طلحة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن (سبحان الله) فقال: «تنزيه الله عن السوء»[(١)].

وسأل ابن الكوّاء علياً عنها فقال: كلمة رضيها الله تعالى لنفسه.

وقال حفص بن سليمان بن[(٢)] طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال: «هو تنزيه الله عن كل سوء»[(٣)].

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٧٦) وقال: هذا منقطع، وروي من وجهٍ آخر.

(٢) كذا في المطبوع، وفي: الأسماء والصفات للبيهقي: جعفر بن سليمان، عن.

(٣) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٧٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد =

فأخبر الله تعالى عن أول دعواهم إذا استدعوا شيئاً قالوا: سبحان الله، وعن آخر دعواهم عندما يحصل لهم، وهو قولهم: الحمد لله رب العالمين.

ومعنى الآية أعمُّ من هذا، والدعوى مثل الدعاء، والدعاء يُراد به الثناء، ويُرادُ به المسألة.

وفي الحديث: «أفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين»[1] فهذا دعاء ثناء وذكر، يلهمه الله أهل الجنة، فأخبر سبحانه عن أوله وآخره، فأوله تسبيح، وآخره حمد، يلهمونهما كما يلهمون النَّفَس.

وفي هذا إشارة إلى أن التكليفَ في الجنة يسقط عنهم، ولا تبقى عبادتهم إلاّ هذه الدعوى التي يلهمونها، وفي لفظة «اللهم» إشارة إلى صريح الدعاء، فإنَّها متضمِّنةٌ لمعنى يا الله، فهي متضمنة للسؤال والثناء، وهذا هو الذي فهمه من قال: إذا أرادوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم، فذكروا بعض المعنى، ولم يستوفوه مع أنهم قصّروا به، فإنهم أوهموا أنهم إنما يقولون ذلك عندما يريدون الشيء، وليس في الآية ما يدلُّ على ذلك، بل يدلُّ على أنَّ أول دعائهم التسبيح، وآخره الحمد.

وقد دلَّ الحديثُ الصحيح على أنهم يلهمون ذلك كما يلهمون النَّفَس، فلا تختصُّ الدعوى المذكورة بوقت إرادة الشيء، وهذا كما أنه لا يليق بمعنى الآية، فهو لا يليق بحالهم، والله تعالى أعلم بالصواب[2].

= (١٠/ ٩٤): رواه البزار، وفيه عبد الرحمٰن بن حماد الطلحي، وهو ضعيف بسبب هذا وغيره.

(١) رواه البيهقي كما في كنوز الحقائق (ص ٢٤) بلفظ: «أفضل الذكر الحمد لله».

(٢) حادي الأرواح (ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣).

معاني اللّهُمَّ:

لا خلافَ أنَّ لفظةَ «اللهم» معناه: «يا الله» ولهذا لا تستعملُ إلاّ في الطلب، فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اغفر لي، وارحمني.

واختلف النحاةُ في الميم المشدَّدة من آخر الاسم.

فقال سيبويه: زيدت عوضاً من حرف النداء؛ ولذلك لا يجوزُ عنده الجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: «يا اللهم» إلا فيما ندر، كقول الشاعر:

إنِّـــي إذا مـــا حَـــدَثٌ ألَمَّـــا أقــولُ: يــا اللهــمَّ يــا اللهمَّــا

ويُسمَّى ما كان من هذا الضرب عِوضاً؛ إذ هو في غير محلّ المحذوف، فإن كان في محله سُمِّي بدلاً، كالألف في «قام» و «باع» فإنها بدل عن الواو والياء.

ولا يجوز عنده أن يُوصَفَ هذا الاسم أيضاً، فلا يقال: «اللهم الرحيم ارحمني» ولا يبدلُ منه.

والضمة التي على الهاء ضمة الاسم المنادى المفرد، وفُتِحت الميم لسكونها وسكون الميم التي قبلها، وهذا من خصائص هذا الاسم، كما اختصَّ بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه مع لام التعريف، وبقطع همزة وصله في النداء، وتفخيم لامه وجوباً غير مسبوقة بحرف إطباق.

هذا ملخصُ مذهب الخليل وسيبويه.

وقيل: الميم عوض عن جملة محذوفة، والتقدير: «يا الله أُمَّنَا بخير» أي: اقصدنا، ثم حذف الجار والمجرور، وحذف المفعول، فتبقى في التقدير: «يا الله أم» ثم حذفت الهمزة لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء على ألسنتهم، فبقي «يا اللهم» وهذا قول الفرّاء.

وصاحب هذا القول يجوّز دخول «يا» عليه، ويحتجّ بقول الشاعر:

.... يــا اللهمَّـا ارْدُدْ علينـــا شيخَنـــا مُسلَّمـــا

وبالبيت المتقدم وغيرهما.

ورد البصريون هذا بوجوه:

أحدها: أنَّ هذه تقادير لا دليل عليها، ولا يقتضيها القياس، فلا يصارُ إليها بغير دليل.

الثاني: أن الأصلَ عدم الحذف، فتقدير هذه المحذوفات الكثيرة خلاف الأصل.

الثالث: أن الداعي بهذا قد يدعو بالشرِّ على نفسه وعلى غيره، فلا يصحُّ هذا التقدير فيه.

الرابع: أن الاستعمالَ الشَّائعَ الفصيحَ يدلُّ على أن العربَ لم تجمعْ بين «يا» و «اللهم» ولو كان أصله ما ذكره الفراء لم يمتنع الجمع، بل كان استعماله فصيحاً شائعاً، والأمر بخلافه.

الخامس: أنه لا يمتنع أن يقول الدَّاعي: «اللهم أمَّنا بخير»، ولو كان التقدير كما ذكره، لم يجز الجمع بينهما لما فيه من الجمع بين العِوض والمعوّض عنه.

السادس: أنَّ الداعي بهذا الاسم لا يخطر ذلك بباله، وإنما تكون عنايته مجردة إلى المطلوب بعد ذكر الاسم.

السابع: أنه لو كان التقدير ذلك لكان: «اللهم» جملة تامة يحسن السكوت عليها لاشتمالها على الاسم المنادى وفعل الطلب، وذلك باطل.

الثامن: أنه لو كان التقدير ما ذكره لكتب فعل الأمر وحده، ولم يوصل الاسم المنادى، كما يقال: «يا الله قهِ» و «يا زيد عِه» و «يا عمرو فِه»؛ لأن الفعل لا يوصلُ بالاسم الذي قبله حتى يجعلا في الخط كلمة واحدة، هذا لا نظير له في الخط. وفي الاتفاق على وصل الميم باسم الله دليلٌ على أنها ليست بفعل مستقل.

التاسع: أنه لا يسوغ ولا يحسن في الدعاء أن يقول العبد: اللهم أُمَّني بكذا، بل هذا مستكرهُ اللفظ والمعنى، فإنه لا يقال: اقصدني بكذا إلا لمن كان يعرض له الغلط والنسيان، فيقول له: اقصدني، وأما من كان لا يفعلُ إلا بإرادته، ولا يضل، ولا ينسى، فلا يقال له: اقصد كذا.

العاشر: أنه يسوغ استعمال هذا اللفظ في موضع لا يكون بعده دعاء، كقوله ﷺ في الدعاء: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١).

وقوله: «اللهم إني أصبحتُ أُشهدك، وأُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله، لا إله إلا أنت وحدك، لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك»(٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٤٦].

وقول النبي ﷺ في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»(٣).

فهذا كله لا يسوغ فيه التقدير الذي ذكروه، والله أعلم.

وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم، كزيادتها في «زُرقم» لشديد

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والصغير، كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٦٩) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح.

(٣) رواه أحمد (١/ ٣٩٢ و٣٩٤) وابن خزيمة (٨٤٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٠٩).

الزرقة، «وابنُم» في الابن، وهذا القولُ صحيحٌ، ممكن، يحتاجُ إلى تتمّة. وقائله لحظ معنىً صحيحاً لا بُدَّ من بيانه، وهو: أنَّ الميمَ تدلُّ على الجمع وتقتضيه، ومخرجها يقتضي ذلك، وهذا مطّرد على أصل مَن أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنى، كما هو مذهب أساطين العربية، وعقد له أبو الفتح بن جني باباً في «الخصائص»، وذكره عن سيبويه، واستدل عليه بأنواع من تناسب اللفظ والمعنى، ثم قال: «ولقد مكثت برهةً يرد عليّ اللفظ لا أعلم موضوعه، وآخذ معناه من قوة لفظه، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى، ثم أكشف فأجده كما فهمته أو قريباً منه». فحكيتُ لشيخ الإسلام هذا عن ابن جني، فقال: وأنا كثيراً ما يجري لي ذلك، ثم ذكر لي فصلاً عظيم النفع في التناسب بين اللفظ والمعنى، ومناسبة الحركات لمعنى اللفظ، وأنهم في الغالب يجعلون الضمة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى، والفتحة خفيفة للمعنى الخفيف، والمتوسطة للمتوسط، فيقولون «عَزَّ يَعزّ» بفتح العين إذا صلب، «وأرض عزاز» صلبة، ويقولون «عزَّ يعِزّ» بكسرها، إذا امتنع، والممتنع فوق الصلب، فقد يكون الشيء صلباً ولا يمتنع على كاسره، ثم يقولون: «عزّه يعزُّه» إذا غلبه، قال الله تعالى في قصة داود: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ۝﴾ [صٓ: ٢٣] والغلبة أقوى من الامتناع؛ إذ قد يكون الشيءُ ممتنعاً في نفسه، متحصّناً عن عدوه ولا يغلب غيره، فالغالبُ أقوى من الممتنع، فأعطوه أقوى الحركات، والصلب أضعفُ من الممتنع، فأعطوه أضعف الحركات، والممتنع المتوسط بين المرتبتين فأعطوه حركة الوسط.

ونظيرُ هذا قولهم «ذِبح» بكسر أوله للمحل المذبوح، و «ذَبح» بفتحه لنفس الفعل، ولا ريب أنَّ الجسمَ أقوى من العَرَض، فأعطوا الحركة القوية للقوي، والضعيفة للضعيف.

وهو مثل قولهم (نِهب) و (نَهب) بالكسر للمنهوب، وبالفتح للفعل.

وكقولهم: (مِلء) (مَلء) بالكسر لما يملأ الشيء، وبالفتح للمصدر الذي هو الفعل.

وكقولهم: (حِمل) و (حَمل) فبالكسر لما كان قوياً مثقلاً لحامله على ظهره، أو رأسه، أو غيرهما من أعضائه، والحمل بالفتح لما كان خفيفاً غير مثقل لحامله كحمل الحيوان، وحمل الشجرة به أشبه ففتحوه.

وتأمّل هذا في الحِبّ والحُبّ، فجعلوا المكسور الأول لنفس المحبوب، ومضمومه للمصدر إيذاناً بخفّة المحبوب على قلوبهم، ولطف موقعه من أنفسهم وحلاوته عندهم، وثقل حمل الحب ولزومه كما يلزم الغريم غريمه. ولهذا يسمى (غراماً)، ولهذا كثر وصفهم لتحمّله بالشدة والصعوبة، وإخبارهم بأن أعظم المخلوقات، وأشدّها من الصخر والحديد، ونحوهما لو حمله لذاب من حمله، ولم يستقل به، كما هو كثير في أشعار المتقدمين والمتأخرين وكلامهم.

وقوله تعالى في الآيات المحكمات: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] والأمة: الجماعة المتساوية في الخلقة أو الزمان. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال النبي ﷺ: «لولا أن الكلاب أمّةٌ من الأمم لأمرت بقتلها»(١).

ومنه (الإمام) الذي يجتمع المقتدون به على اتّباعه، ومنه أمّ الشيء بأنه إذا جمع قصده وهمه إليه، ومنه: «رمّ الشيء يرمُّه» إذا أصلحه، وجمع متفرقه. قيل: ومنه سُمّي الرمّان لاجتماع حَبّه وتضامّه.

ومنه: «ضمَّ الشيء يضمُّه» إذا جمعه، ومنه: همّ الإنسان وهمومه،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٥٤).

وهي: إرادته وعزائمه التي تجتمعُ في قلبه.

ومنه قولهم للأسود: «أحم» والفحمة السوداء «جممة» و «حمم رأسه» إذا اسودّ بعد حلقه كله، هذا لأنَّ السواد لون جامع للبصر لا يدعه يتفرق. ولهذا يُجعل على عيني الضعيف البصر لوجع أو غيره شيء أسود من شعر أو خرقة؛ ليجمع عليه بصره فتقوى القوة الباصرة، وهذا بابٌ طويل، فلنقتصرْ منه على هذا القدر.

وإذا عُلِمَ هذا من شأن الميم، فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الذي يُسأل به الله سبحانه في كل حاجة وكل حال إيذاناً بجميع أسمائه وصفاته، فإذا قال السائل: «اللهم إني أسألك» كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذاناً بسؤاله تعالى بأسمائه كلها، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما أصاب عبداً قط همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبْدُك وابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك سمّيتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خَلْقِك، أو استأثرتَ به في عِلْم الغيب عندك أن تجعل القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي وغمّي، إلا أذهب اللَّهُ همَّه وغمَّه، وأبدله مكانه فرحاً»، قالوا: يا رسول الله! أفلا نتعلّمهن؟ قال: «بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»[1].

فالداعي مندوبٌ إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما في الاسم الأعظم: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩١).

المنان، بديع السمٰوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ، يا قيوم»[1].

وهذه الكلمات تتضمّن الأسماء الحسنى.

أقسامُ الدعاء:

الدعاء ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا أحدُ التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك وذلّك، فتقول: أنا العبد، الفقير، المسكين، البائس، الذليل، المستجير، ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك، ولا تذكر واحداً من الأمرين. فالأول أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث. فإذا جَمَعَ الدعاءُ الأمورَ الثلاثة كان أكمل.

وهذه عامةُ أدعية النبي ﷺ[2].

معانـي ﴿تبارك﴾:

وأما صفته «تبارك» فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله:

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

---

(١) سبق تخريجه (٥٠).

(٢) جلاء الأفهام (ص ٧٢ ـ ٧٣).

و ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

أفلا تراها كيف اطَّردت في القرآن جاريةً عليه، مختصّةً به، لا تُطلق على غيره، وجاءت على بناء السَّعة والمبالغة كتعالى، وتعاظم، ونحوهما، فجاء بناء (تبارك) على بناء تعالى؛ الذي هو دالٌّ على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دالٌّ على كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم[١].

وقال آخر: معناه أن تجيء البركاتُ من قبله، فالبركةُ كلُّها منه.

وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته، ورحمته بهم.

وقيل: تزايد عن كلِّ شيء، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل معناه: تعالى وتعاظم.

وقيل: تبارك: تقدَّس، والقدس: الطهارة.

وقيل: تبارك، أي: باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارَك: المرتفع، ذكَره البغوي[٢].

---

(١) قال الأزهري: تبارك: تعالى وتعاظم وارتفع، وقيل: إن باسمه يُتَبَرَّك ويُتَيَمَّن.

(٢) البغوي: هو الحسين بن مسعود أبو محمد، فقيه محدث، يلقب بـ: محيي السنة، له «تفسير لباب التأويل» وكتاب «مصابيح السنة» و«شرْح السنة» توفي (٥١٠ هـ).

وقيل: تبارك، أي: البركة تُكتسب وتُنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة.

وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذَكَره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة: أنَّ البركةَ كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحقّ بذلك وصفاً وفعلاً منه[1] تبارك وتعالى، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل: تعالى، وتقدّس، وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً، ولا قدوساً، ولا عظيماً، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نُسبت إليه فهو المتعالي المتقدّس.

فكذلك (تبارك) لا يصحُّ أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى؟! هذا لازم وهذا متعدٍّ[2]، فعلمت أنَّ من فسَّر تبارك بمعنى ألقى البركة، وبارك في غيره، لم يُصِب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب: مجد، والمجد: كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزمُ اللازم من غير عكس فسّر من فسّر من السلف اللفظة بالمتعدي؛ لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلّها من عنده، أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه.

---

(١) قال الآلوسي: تبارك، أي: تقدس، وتنزه عن كل نقص... ولا يقال ذلك في غيره تعالى، بل هو صفة خاصة به سبحانه كما في القاموس. (تفسير روح المعاني ١٣٨/٨ ـ ١٣٩).

(٢) في اللسان: تبارك الله، أي: بارك الله، مثل: قاتل وتقاتل، إلا أن فاعل يتعدى، وتفاعل لا يتعدى. وقال الفرّاء: والعرب تقول: باركك الله، وبارك فيك. (اللسان برك).

وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب «الفتح المكّي» وبيَّنا هناك أن البركةَ كلَّها له تعالى ومنه، فهو المبارِك، ومن ألقى عليه بركته، فهو المبارَك، ولهذا كان كتابه مبارَكاً، ورسوله مباركاً، وبيته مبارَكاً، والأزمنة والأمكنة التي شرَّفها واختصَّها عن غيرها مباركة، فليلةُ القدر مبارَكة، وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة[1].

وتدبَّر قولَ النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «اللهمَّ أنت السلام ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام»[2] فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني: ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ، وأوجزه، وأتمّه معنى، فأخبر أنه السلام، ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً.

تفسير قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾:

قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [هود: ١٠٧] دليلٌ على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزلْ كذلك؛ لأنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأنَّ ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكونَ عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات. وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧] وما كان من

---

(١) انظر في بيان الآيات الواردة في فضائل الشام كتاب: «حدائق الإنعام في فضائل الشام» لعبد الرحمن ابن إبراهيم بن عبد الرزاق الدمشقي، الباب الثاني منه. تحقيق يوسف بديوي.

(٢) سبق تخريجه (ص ١١٠).

أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي: يفعل كلَّ ما يريد أن يفعله[1]، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر. فإن أراد فعل العبد، ولم يرد من نفسه أن يعينه، ويجعله فاعلاً، لم يوجد الفعل، وإن أراده، حتى يريدَه من نفسه أن يجعله فاعلاً.

وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية[2] والجَبْرية[3]، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها؛ فإنّ هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الربّ فاعلاً، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعينَ عبده، وأن يخلقَ له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريدُ فعله، ولا يريدُ من نفسه أن يخلقَ له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل[4].

ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] فالتسيير فعله، والسير فعل العباد، وهو أثرُ التسيير، وكذلك الهدى والإضلال فِعلُه، والاهتداء والضلال أثر فعله، وهما أفعالنا القائمة بنا،

---

(١) انظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (ص ١٠٦، ١١٨).

(٢) قال ابن الأثير: سموا قدرية لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه» (تاريخ الجهمية والمعتزلة للشيخ جمال الدين القاسمي ص ٧٢).

(٣) الجبرية (بفتح الجيم وسكون الباء) طائفة تسند فعل العبد إلى الله تعالى، وطائفة قالوا: لا قدرة للعبد أصلاً لا مؤثرة ولا كاسبة، بل هو بمنزلة الجَمادات فيما يوجد منها. (تاريخ الجهمية ص ٢٨).

(٤) التبيان (ص ٦١).

فهو الهادي، والعبد المهتدي، وهو الذي يضل من يشاء والعبد الضال، وهذا حقيقة، وهذا حقيقة[1].

كثرة صفات كماله ونعوت جلاله:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] هذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله، ونعوت جلاله، وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها، وإلاّ فلو أُريدَ بها نفي الصِّفات، لكان العدمُ المحض أولى بهذا المدح منه، مع أنَّ جميعَ العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثل له، وليس له نظير، ولا شبيه، ولا مثل؛ أنه قد تميَّز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته فاق أمثاله، وَبَعُد عن مشابهة أضرابه، فقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ من أدلّ شيء على كثرة نعوته، وصفاته.

وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] من أدلّ شيء على أنه يُرى ولا يُدْرَك.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤] من أدلِّ شيء على مباينة الرب لخلقه؛ فإنه لم يخلقهم في ذاته بل خلقهم خارجاً عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلمُ ما هم عليه فيراهم، وينفذهم بصره، ويحيطُ بهم عِلْماً، وقدرة، وإرادة، وسمعاً، وبصراً، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا.

وتأمَّلْ حُسْنَ هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله: ﴿لا تدركه الأبصار

---

(١) شفاء العليل (ص ٥٨).

وهو يدرك الأبصار﴾ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار، وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفى عليه، فهو العظيمُ في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يُدْرِكُ الأبصار، وهو اللطيف الخبير[1].

تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾:

أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم في موضعين من كتابه:

أحدهما قوله حاكياً عن نبيِّه هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]. والثاني قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

قال أبو إسحاق: أخبر أنه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء فهو لا يشاء إلا العدل.

قال ابن الأنباري: لمّا قال: ﴿إلا هو آخذ بناصيتها﴾ كان في معنى: لا تخرج عن قبضته، قاهر بعظيم سلطانه كل دابة، فأتبع ذلك قوله: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي: إنه على الحق. قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا رجلاً حسن السيرة، والعدل، والإنصاف، قالوا: فلان طريقه حسنة، وليس ثَمَّ طريق. وذُكر في معنى الآية أقوال أخر[2] هي من

---

(١) حادي الأرواح (ص ٢٠٣).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٥٢ ـ ٥٣) وتفسير روح المعاني للآلوسي (١٢/ ٨٤).

لوازم هذا المعنى وآثاره، كقوله بعضهم: إن ربي يدلُّ على صراط مستقيم، فدلالته على الصراط من موجبات كونه في نفسه على صراط مستقيم، فإنَّ تلك الدلالة والتعريف من تمام رحمته، وإحسانه، وعدله، وحكمته.

وقال بعضهم: معناه لا يخفى عليه شيء، ولا يعدل عنه هارب.

وقال بعضهم: المعنى لا مسلك لأحد، ولا طريق له إلاّ عليه، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤] وهذا المعنى حق، ولكن كونه هو المراد بالآية ليس بالبيّن، فإنَّ الناسَ كلَّهم لا يسلكون الصراط المستقيم، حتى يقال: إنهم يصلون سلوكه إليه. ولمَّا أراد سبحانه هذا المعنى قال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٧٠] ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: ٢٥] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢].

وأما وصفه سبحانه بأنه على صراط مستقيم فهو كونه يقول الحقَّ، ويفعل الصواب، فكلماتُه صدق وعدل، كلُّه صواب وخير، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، فلا يقول إلاّ ما يحمد عليه لكونه حقاً، وعدلاً، وصدقاً، وحكمة في نفسه. وهذا معروف في كلام العرب، قال جرير يمدحُ عمرَ بن عبد العزيز:

أميرُ المؤمنين على صِراطٍ ... إذا اعوَجَّ المواردُ مُسْتَقيمِ

وإذا عرف هذا، فمن ضرورة كونه على صراط مستقيم أنه لا يفعل شيئاً إلا بحكمة يُحمد عليها، وغاية هي أولى بالإرادة من غيرها؛ فلا تخرج أفعاله عن الحكمة، والمصلحة، والإحسان، والرحمة، والعدل، والصواب، كما

لا تخرج أقواله عن العدل والصدق[1].

وكذا الحمد كلّه له وصفاً وملكاً، فهو المحمودُ في ذاته، وهو الذي يجعلُ من يشاء من عباده محموداً، فيهبه حمداً من عنده.

وكذلك العزة كلّها له وصفاً وملكاً، وهو العزيزُ الذي لا شيء أعزّ منه، ومن عزّ من عباده فبإعزازه له.

وكذلك الرحمة كلّها له وصفاً وملكاً.

وكذلك البركة، فهو المتباركُ في ذاته، الذي يباركُ فيمن شاء من خلقه، وعليه فيصير بذلك مباركاً ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤﴾ [غافر: ٦٤] و﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط، وإنما غايةُ معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله، وأقربهم إلى الله، وأعظمهم عنده جاهاً: «لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأَخُرّ ساجداً لربي فيفتحُ عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن»[3].

وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[4].

---

(١) شفاء العليل (ص ٢٠١ ــ ٢٠٢).

(٢) سبق تخريجه (ص ٨١).

(٣) رواه البخاري (٤٧١٢) في التفسير، باب: ﴿ذرية مَن حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا﴾، والترمذي (٢٤٣٤) في صفة القيامة، باب: ما جاء في الشفاعة.

(٤) سبق تخريجه (ص ٨٠).

فدلَّ على أنَّ لله سبحانه وتعالى أسماءً وصفاتٍ استأثر بها في عِلْم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملكٌ مُقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل. وحسبُنا الإقرارُ بالعجز، والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق(١).

توضيح معنى القرب في بعض الآيات:

قول الله عز وجل ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦] وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] ونحو هذا من متشابه القرآن إنما يعني بذلك العلم أن الله عز وجل على العرش فوق السماء السابعة العليا يعلم ذلك كله، وهو بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان.

ولله ـ عز وجل ـ عرش، وللعرش حملة يحملونه، والله ـ عز وجل ـ مستوٍ على عرشه وليس له حدّ.

والله عز وجل سميع لا يشك، بصير لا يرتاب، عليم لا يجهل، جواد لا يبخل، حليم لا يعجل، حفيظ لا ينسى، ولا يسهو، قريب لا يغفل، ويتكلم، وينظر، ويبسط، ويضحك، ويفرح؛ ويحب، ويكره، ويبغض، ويرضى، ويغضب، ويسخط، ويرحم، ويغفر، ويعطي، ويمنع، وينزل كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا كيف شاء، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير(٢).

تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]:

إنه سبحانه أبرز خلقه من العدم إلى الوجود ليجري عليه أحكام

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٧).

(٢) حادي الأرواح (٢٩٠ ـ ٢٩١).

أسمائه وصفاته، فيظهر كماله المقدس، وإن كان لم يزل كاملاً، فمن كماله ظهور آثار كماله في خلقه، وأمره، وقضائه، وقدره، ووعده، ووعيده، ومنعه، وإعطائه، وإكرامه، وإهانته، وعدله، وفضله، وعفوه، وإنعامه، وسعة حلمه، وشدة بطشه.

وقد اقتضى كمالُه المقدس سبحانه أنه كل يوم هو في شأن، فمن جملة شؤونه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويشفي مريضاً، ويفكّ عانياً، وينصر مظلوماً، ويغيث ملهوفاً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويجيب دعوةً، ويقيل عثرةً، ويعزّ ذليلاً، ويذلّ متكبراً، ويقصِم جباراً، ويميت ويحيي، ويُضحِك ويُبكي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويرسل رسله من الملائكة ومن البشر في تنفيذ أوامره، وسوق مقاديره التي قدرها إلى مواقيتها التي وقّتها لها، وهذا كله لم يكن ليحصل في ذات البقاء، وإنما اقتضت حكمته البالغة حصوله في دار الامتحان والابتلاء[1].

تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] قال الزمخشري[2]: هو استثناءٌ منقطعٌ جاء على لغة تميم؛ لأنَّ الله تعالى وإن صحَّ الإخبار عنه بأنه في السّموات والأرض؛ فإنما ذلك على المجاز؛ لأنه مقدّس عن الكون في المكان بخلاف غيره، فإنَّ الإخبار عنه بأنه في السّماء أو في الأرض ليس بمجاز، وإنما هو حقيقة، ولا يصحّ حمل اللفظ في حالٍ واحدٍ على الحقيقة والمجاز.

---

(١) شفاء العليل (١٢٠).

(٢) هو محمود بن عمر الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. من كتبه: «الكشاف» و«أساس البلاغة» و«المفصّل». توفي سنة (٥٣٨ هـ).

قلت: وقوله على لغة تميم[١]، يريد أنّ من لغتهم أن الاستثناءَ المنقطعَ يجوزُ إتباعه كالمتصل إن صحّ الاستثناء به عن المستثنى منه، وقد صحَّ هاهنا إذ يصحّ أن يقال: لا يعلم الغيبَ إلا اللَّهُ.

قال ابنُ مالك[٢]: والصحيح عندي أنَّ الاستثناء في الآية متّصل، و«في» متعلقة بفعل غير استقر من الأفعال المنسوبة حقيقة إلى الله تعالى وإلى المخلوقين، كذكر ويذكر ونحوه، كأنه قيل: لا يعلم من يذكر في السموات والأرض الغيب إلاّ الله. قال: ويجوز تعليقُ «في» باستقر مستند إلى مضاف حذف، وأقيم المضاف إليه مقامه، والأصل لا يعلم من استقر ذكره في السَّموات والأرض الغيب إلا الله، ثم حذف الفعل والمضاف، واستتر المضمر لكونه مرفوعاً، وهذا على تسليم امتناع إرادة الحقيقة والمجاز في حال واحد، وليس عندي ممتنعاً لقولهم: القلم أحد اللسانين، والخال أحد الأبوين[٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وقول النبي ﷺ: «الأيدي ثلاثة: يد الله، ويد المعطي، ويد السَّائل»[٤].

فهذا كلامُ هذين الفاضلين في هذه الآية، وأنت ترى ما فيه من التكلُّف الظَّاهر الذي لا حاجة بالآية إليه، بل الأمر فيها أوضح من ذلك،

---

(١) في «الكشاف»: فإن قلت: لم رفع اسم الله، والله يتعالى أن يكون ممن في السموات والأرض؟ قلت: جاء على لغة بني تميم (الكشاف ٣/ ١٥٦).

(٢) هو محمد بن عبد الله الطائي، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. له «الألفية» و«تسهيل الفوائد» و«شواهد التوضيح» وغير ذلك. توفي سنة (٦٧٢ هـ).

(٣) جلاء الأفهام (ص ٩٥).

(٤) رواه أبو داود (١٦٤٩) في الزكاة، باب: في الاستعفاف.

والصَّواب أنَّ الاستثناء متّصل، وليس في الآية استعمالُ اللفظ في حقيقته ومجازه؛ لأنَّ مَن في السموات والأرض ـ هاهنا ـ أبلغ صيغ العموم، وليس المرادُ بها معيناً، فهي في قوة أحد المنفي بقولك: لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا الله، وأتى في هذا بذكر السموات والأرض تحقيقاً لإرادة العموم والإحاطة، فالكلام مؤدٍّ معنى: لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا الله، وإنما نشأ الوهم في ظنّهم أن الظرف ـ هاهنا ـ للتخصيص والتقييد، وليس كذلك، بل لتحقيق الاستغراق والإحاطة، فهو نظير الصفة في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] فإنها ليست للتخصيص والتقييد، بل لتحقيق الطيران المدلول عليه بطائر، فكذلك قوله: ﴿من في السموات والأرض﴾ لتحقيق الاستغراق المقصود بالنفي.

ومن تأمل الآية علم أنه لم يقصدْ بها إلا ذلك. وقد قيل: إنَّه لا يمتنعُ أن يطلقَ عليه تعالى أنه في السَّموات كما أطلقه على نفسه، وأطلق عليه رسوله. قالوا: ولا يلزمُ أن يكونَ هذا الإطلاق مجازاً، بل له منه الحقيقة التي تليقُ بجلاله، ولا يشابهه فيها شيءٌ من مخلوقاته، وهذا كما يطلق عليه أنه سميعٌ، بصير، عليم، قدير، حيّ، مريد حقيقة، ويطلق ذلك على خلقه حقيقة، والحقيقة المختصة به لا تماثل الحقيقة التي لخلقه، فتناول الإطلاق بطريق الحقيقة لهما لا يستلزم تماثلهما حتى يفرّ منه إلى المجاز.

وأما قوله: إنَّ الظرفَ متعلّق بفعل غير استقرّ من الأفعال المنسوبة إلى الله وإلى المخلوقين حقيقة، كذكر ويذكر إلى آخره، فيقال: حذف عامل الظرف لا يجوز، إلا إذا كان كوناً عاماً، أو استقراراً عاماً، فإذا كان استقراراً، أو كوناً خاصّاً مقيداً، لم يجز حذفه. وعلى هذا جاء مصرَّحاً به في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٤٠] لأن المرادَ به

الاستقرار الذي هو الثبات واللزوم، لا مطلق الحصول عنده، فكيف يسوغ حذفُ عامل الظرف في موضعٍ ليس بمعهود حذفه فيه، وأبعد من هذا التقدير ما ذكره في التقدير الثاني: أن عامل الظرف استقرار مضاف إلى ذكر محذوف، استغني به عن المضاف إليه، والتقدير: استقر ذكره، فإن هذا لا نظير له، وهو حذفٌ لا دليلَ عليه، والمضاف يجوزُ أن يُستغنى به عن المضاف إليه بشرطين أن يكون مذكوراً، وأن يكون معلومَ الوضع، مدلولاً عليه لئلا يلزم اللبس.

وأمّا ادِّعاء إضافة شيء محذوف إلى شيء محذوف، ثم يُضاف المضافُ إليه إلى شيء آخر محذوف من غير دلالة في اللفظ عليه، فهذا مما يُصان عنه الكلامُ الفصيحُ، فضلاً عن كلام ربِّ العالمين.

وأما قوله: على أنه لا يمتنع إرادة الحقيقة والمجاز معاً، واستدلاله على ذلك بقولهم: القلم أحدُ اللسانين، فلا حجة فيه لأنَّ اللسانين اسمٌ مثنى، فهو قائم مقام النطق باسمين أريد بأحدهما الحقيقة، وبالآخر المجاز، وكذلك: الخال أحد الأبوين، وكذلك: «الأيدي ثلاثة».

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فالاستدلال به أبعد من هذا كله، فإنَّ الصلاةَ على النبي ﷺ من الله وملائكته حقيقة بلا ريب، والحقيقة المضافة إلى الله من ذلك لا تماثل الحقيقة المضافة إلى الملائكة، كما إذا قيل: الله ورسوله والمؤمنون يعلمون أن القرآن كلام الله، لم يجز أن يقال: إن هذا استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وإن كان العلم المضاف إلى الله غير مماثل للعلم المضاف إلى الرسول والمؤمنين، فتأمل هذه النكت البديعة، ولله الحمد والمنّة[١].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٦٢ ــ ٦٤).

الحكمة في مقابلة الصفات:

طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء وأسماء المخافة، كقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨].

وقال أهل الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤] لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم، وشكره إحسانهم قالوا: ﴿إن ربنا لغفور شكور﴾ وفي هذا معنى التعليل، أي: بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات، وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧] فهذا جزاء لشكرهم، أي: إن شكركم، وهو عليمٌ بشكركم، لا يخفى عليه مَنْ شكره مِمَّن كفره[1].

وأمّا من جانب الربوبية فجريان الحكم وإظهار عزّ الربوبية، وذلّ العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى كالعفو، والغفور، والتواب، والحليم لمن جاء تائباً نادماً، والمنتقم، والعدل، وذي البطش الشديد لمن أصرَّ، ولزم المجرّة، فهو سبحانه يريدُ أن يُري عبدَه تفرُّدَه بالكمال، ونقص العبد، وحاجته إليه، ويشهده كمال قدرته وعزته، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال بره، وستره، وحلمه، وتجاوزه، وصفحه، وأن رحمته به إحسان إليه لا معاوضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة، فلله كم لتقدير الذنب من حكمة! وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة! التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل، ورب علّة كانت سبب الصحة:

---

(١) جلاء الأفهام (ص ٩٥).

لعلَّ عتبَك محمودٌ عواقبه ... وربما صحَّتِ الأجسادُ بالعللِ[1]

وكذلك من صفاته الصفات المتقابلة كالرّضا، والسخط، والحب، والبغض، والعفو، والانتقام، وهذه صفات كمال وإلاّ لم يتّصف بها، ولم يتسمَّ بأسمائها. وإذا كانت صفات كمال فإما أن يتعطّل مقتضاها وموجبها، وذلك يستلزمُ تعطيلها في أنفسها، وإمّا أن تتعلّق بغير محلّها الذي يليقُ بأحكامها، وذلك نقص وعيب يتعالى عنه، فيتعيّن تعلُّقها بمحالها التي تليقُ بها، وهذا وحده كافٍ لمن كان له فقهٌ في باب الأسماء والصفات، ولا غيره يغيره[2].

• • •

الفصل الثالث

طريقة القرآن الكريم في ورود أسماء الله تعالى

التعريف والتنكير:

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٦] فأكَّد بإنّ، وبضمير الفصل، وأتى باللام في «السميع العليم».

وقال في الأعراف: ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وسرُّ ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرّد الاسم، ولم يؤكّده، أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه

---

(١) الفوائد (ص ٦٦ ـ ٦٧).

(٢) شفاء العليل (ص ٢٢٠).

فيدفعه عنك، فالسمعُ لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصودُ الاستعاذة، وهذا المعنى شاملٌ للموضعين، وامتاز المذكورُ في سورة (فصِّلَت) بمزيد التأكيد، والتعريف، والتَّخصيص؛ لأنَّ سياقَ ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكّوا في سمعه لقولهم، وعلمه بهم.

وأيضاً فإن السياق ها هنا لإثبات صفات كماله، وأدلة ثبوتها، وآيات ربوبيته، وشواهد توحيده؛ ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] وبقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التعريف الدالة على أنَّ من أسمائه «السميع العليم»، كما جاءت الأسماء الحسنى كلُّها معرّفة، والذي في (الأعراف) في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين، ووعد المستعيذ بأن له ربّاً يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، فإنه سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعلم، فكيف تُسَوُّونها به في العبادة؟! فعلمت أنه لا يليقُ بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلمُ بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذُ منه في سورة «حَمَ المؤمن» هو شرّ مجادلة الكفار في آياته، وما ترتَّب عليها من أفعالهم المرْئيَّة بالبصر قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦] فإنه لما كان المستعاذُ منه كلامه وأفعالهم المشاهدة عِياناً قال: ﴿إنه هو السميع البصير﴾ وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقبيلُه من حيث

لا نراه، بل هو معلوم بالإيمان، وإخبار الله ورسوله[1].

التقديم والتأخير بين الرحيم والغفور:

تقديمُ الرحيم على الغفور في موضع واحدٍ وهو أول سبأ يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾[2] فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعمُّ المعارف، وأوسع العلوم، وهو متضمنٌ لجميع صفات كماله، ونعوت جلاله، مستلزمٌ لها، كما هو متضمنٌ لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود على كلِّ حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه، ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد، فقال: ﴿الحمد لله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابتٌ له في الآخرة، غير منقطع أبداً، فإنه حمد يستحقّه لذاته، وكمال أوصافه، وما يستحقّه لذاته دائم بدوامه، لا يزول أبداً، وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه، فإنَّ اقترانَ أحدهما بالآخر له كمالٌ زائد على الكمال بكل واحدٍ منهما، فله كمالٌ من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإنَّ الملكَ بلا حمدٍ يستلزمُ نقصاً، والحمد بلا ملك يستلزمُ عجزاً، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذا العزة، والرحمة، والعفو، والقدرة، والغِنى، والكرم، فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفاً بحمد قبله وحمد بعده، ثم عقب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة،

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٦١ ـ ٦٢).

(٢) قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور﴾ [سبأ: ١ ـ ٢].

وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمةٍ بالغة، وعلى كمال العلم، وأنّه كما يتعلّق بظواهر المعلومات، فهو متعلّقٌ ببواطنها التي لا تُدرك إلا بخبرةٍ، فنسبةُ الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمرادُ ظاهرٌ، والحكمة باطنة، والعلم ظاهر، والخبرة باطنة، فكمالُ الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطنُ العلم وكماله، والحكمةُ باطن الإرادة وكمالها، فتضمّنت الآيةُ إثباتَ حمده، وملكه، وحكمته، وعلمه على أكمل الوجوه.

حكمة وقوع لفظ (شديد) بين رحمتين:

تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله وصفة رحمة بعده، فقبله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ وبعده ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣].

ففي هذا تصديقُ الحديث الصحيح، وشاهد له، وهو قوله ﷺ: «إنَّ الله كَتَبَ كتاباً فهو موضوعٌ عنده فوق العرش، إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي» وفي لفظ: «سبقت غضبي»[1] وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت[2].

الحكمة في تقديم قوله تعالى ﴿رب الناس * ملك الناس﴾:

المقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٨١) والبخاري (٧٥٥٤) في التوحيد، باب: قول الله: ﴿بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾ والترمذي (٣٥٤٣) في الدعوات، باب: خلق الله مئة رحمة، وابن ماجه (٤٢٩٥) في الزهد، باب: ما يُرجى من رحمة الله يوم القيامة.

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٩٣).

وقدّم الربوبية لعمومها وشمولها لكلّ مربوب، وأخّر الإلهية لخصوصها؛ لأنّه سُبحانه إنَّما هو إلهُ مَنْ عبده، ووحَّده، واتّخذه دون غيره إلهاً، فمن لم يعبده ويوحّده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إلهه الحق، واتخذ إلهاً غيره، ووسّط صفة الملك بين الربوبية والإلٰهية؛ لأنَّ الملك هو المتصرِّفُ بقوله وأمره، فهو المطاعُ إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيتُه تستلزمُ ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزمُ إلهيته ويقتضيها، فهو الربُّ الحقُّ، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلهيته، فتأمَّل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمَّنتها هذه الألفاظُ الثلاثة على أبدع نظام، وأحسن سياق[1].

طريقة القرآن في عطف أسماء الله تعالى:

أسماءُ الرب تبارك وتعالى أكثر ما تجيء في القرآن بغير عطف نحو: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧] ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩] ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: ١١٩] ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] إلى آخرها.

وجاءت معطوفة في موضعين:

أحدهما: في أربعة أسماء، وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن.

والثاني: في بعض الصفات بالاسم الموصول، مثل قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الأعلى: ٢ ــ ٤] ونظيره: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٤٨ ــ ٢٤٩).

نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الزخرف: ١٠ ــ ١٢].

فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض، وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول. ألاَ ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر، وكذلك: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وأمّا تلك الأسماء الأربعة فهي ألفاظٌ متباينةُ المعاني، متضادة الحقائق في أصل موضوعها، وهي متفقة المعاني، متطابقة في حقّ الرب تعالى، لا يبقى منها معنى بغيره، بل هو أول كما أنه آخر، وظاهر كما أنه باطن.

ولا يناقضُ بعضها بعضاً في حقّه، فكان دخولُ الواو صَرفاً لوهم المخاطب قبل التفكر والنظر عن توهم المحال، واحتمال الأضداد؛ لأنَّ الشَّيء لا يكونُ ظاهراً باطناً من وجه واحد، وإنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطفُ ــ هاهنا ــ أحسن من تركه لهذه الحكمة. هذا جواب السُّهيلي.

وأحسنُ منه أن يُقال: لما كانت هذه الألفاظُ دالةً على معاني متباينة، وأنَّ الكمالَ في الاتّصاف بها على تباينها، أتى بحرف العطف الدَّال على التغاير بين المعطوفات، إيذاناً بأنَّ هذه المعاني مع تباينها، فهي ثابتةٌ للموصوف بها.

ووجه آخر ــ وهو أحسن منها ــ وهو أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم، وتقريره يكون في الكلام متضمناً لنوع من التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة إلى فهم ما نحن فيه: إذا كان

لرجلٍ مثلاً أربع صفات هو: عالم، وجواد، وشجاع، وغني، وكان المخاطبُ لا يعلم ذلك، أو لا يقرُّ به، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجلٍ. فإذا قلت: زيد عالم، وكان ذهنه استبعد ذلك، فتقول: وجواد، أي: وهو مع ذلك جواد، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت: وشجاع، أي: وهو مع ذلك شجاع وغني، فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه، تدرأ به توهم الإنكار.

وإذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكارٌ لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد، فإذا قيل: هو الأول ربما سَرَى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكونَ الآخر غيره؛ لأنَّ الأولية والآخرية من المتضايفات.

وكذلك الظاهر والباطن، إذا قيل هو ظاهر، ربما سرى الوهم إلى أنَّ الباطنَ مقابله، فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال، على أنَّ الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول، وهو الآخر، وهو الظَّاهر، وهو الباطن، لا سواه. فتأمَّل ذلك فإنه من لطيف العربية، ودقيقها.

وأما قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [غافر: ٣] فعطف في الاسمين الأولين دون الآخرين؛ لأنَّ شدَّة عقابه من صفات الأفعال، وطوله من صفات الأفعال، ولفظة «ذي» فيه لا تخرجه عن كونه صفة فعل، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران: ٤] بل لفظ الوصف بغافر وقابل أدلّ على الذات من الوصف بذي؛ لأنها بمعنى صاحب كذا، فالوصف المشتق أدلُّ على الذات من الوصف بها. فتضمّن هذان الاسمان إثبات شرعه، وإحسانه، وفضله.

ثم قال «شديد العقاب»، وهذا جزاؤه للمذنبين، و«ذو الطول»

جزاؤه للمحسنين، فتضمنت الثواب والعقاب.

ثم قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ٣] فتضمّن ذلك التوحيد والمعاد، فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو، والكلام، والقدرة، والعلم، والقدر، وحدوث العالم، والثواب، والعقاب، والتوحيد، والمعاد.

واعلم أن هذه الجملة مشتملةٌ على ستة أسماء، كل اثنين منها قسم، فابتدأها بالعزيز العليم، وهما اسمان مطلقان، وصفتان من صفات ذاته، وهما مجردان عن العطف.

ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله، فأدخل بينهما العاطف، ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما، وجرَّدهما من العاطف.

فأما الأولان فتجرّدهما من العاطف لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله، وهما متلازمان، فتجريدُهما عن العطف هو الأصلُ، وهو موافقٌ لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك، كالعزيز العليم، والسميع البصير، والغفور الرحيم.

وأما ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ فدخل العاطفُ بينهما لأنهما في معنى الجملتين، وإن كانا مفردين لفظاً، فهما يُعطيان معنى يغفر الذنب ويقبل التوب، أي: هذا شأنه ووصفه في كلّ وقت، فأتى بالاسم الدَّالّ على أنَّ هذا وصفه ونعته المتضمن لمعنى الفعل، الدال على أنه لا يزال يفعل ذلك، فعطف أحدُهما على الآخر، على نحو عطف الجمل بعضها على بعض، ولا كذلك الاسمان الأولان.

ولما لم يكن الفعلُ ملحوظاً في قوله: ﴿شديد العقاب ذي الطول﴾ إذ لا يحسنُ وقوعُ الفعل فيهما، وليس في لفظ ﴿ذي﴾ ما يصاغ منه فعل، جرى مجرى المفردين من كلّ وجه، ولم يعطف أحدهما على الآخر، كما

لم يعطف في العزيز العليم، فتأمله فإنه واضح.

وأما العطف في قوله: ﴿الذي خلق فسوّى * والذي قدّر فهدى﴾ فلما كان المقصودُ الثناء عليه بهذه الأفعال، وهي جملة، دخلت الواو عاطفة جملة على جملة، وإن كانت الجملةُ مع الموصول في تقدير المفرد، فالفعل مراد مقصود، والعطف يصيِّرُ كلاً منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر، بخلاف ما لو أتى بها في خبر موصول واحد، فقيل: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] و ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الزخرف: ١١] ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ١٢] كانت كلّها في حكم جملة واحدة، فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة، دلّ على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدتها[1].

●●●

الفصل الرابع

معاني الإضافة في قوله: ﴿ربِّ النّاس * مَلِك النّاس * إله النّاس﴾

اشتملت هذه الإضافاتُ الثلاثُ على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى، أمّا تضمّنها لمعاني أسمائه الحسنى، فإنَّ الربَّ هو القادرُ، الخالقُ، البارىء، المصوِّر، الحيُّ، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضار، النافع، المقدِّم، المؤخر، الذي يضلّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩٠ ــ ١٩١).

يشاء، ويشقي من يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقّه من الأسماء الحسنى.

وأمّا الملك، فهو الآمر، الناهي، المعزّ، المذلّ، الذي يُصرِّفُ أمورَ عباده كما يحبّ، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقّه من الأسماء الحسنى كالعزيز، الجبّار، المتكبّر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، المذلّ، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المقسط، الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأمّا الإلهُ فهو الجامعُ لجميع صفات الكمال، ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى.

وإن اسم الله تعالى هو الجامعُ لجميع معاني الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، فقد تضمّنت هذه الأسماءُ الثلاثةُ جميعَ معاني أسمائه الحسنى، فكان المستعيذُ بها جديراً بأن يُعاذ، ويُحفظ، ويُمنع من الوسواس الخناس، ولا يُسلَّط عليه.

وأسرار كلام الله أجلّ وأعظم من أن تدركها عقولُ البشر، وإنما غايةُ أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وإن باديه[1] إلى الخافي يسير[2].

معاني الإضافة في قوله ﴿ذو العرش﴾:

أضاف تعالى العرشَ إلى نفسه، كما تُضاف إليه الأشياءُ العظيمة الشريفة، وهذا يدلُّ على عظمة العرش، وقُرْبه منه سبحانه، واختصاصه

---

(١) «باديه»: أي: الذي يظهر منه بالنسبة إلى الخافي يسير.

(٢) بدائع الفوائد (٢/٢٤٩).

به، بل يدلُّ على غاية القرب والاختصاص، كما يضيفُ إلى نفسه بـ «ذو» صفاته القائمة به، كقوله ﴿ذو القوة﴾ ﴿ذو الجلال والإكرام﴾ ويقال: ذو العزة، وذو الملك، وذو الرحمة، ونظائر ذلك. فلو كان حظُّ العرش منه حظّ الأرض السابعة، لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش. وذو الأرض[1].

إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى:

اعلم أنَّ الرحمة والبركة المضافتين إلى الله تعالى نوعان:

أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله.

والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها.

فمن الأول قوله في الحديث الصحيح: «احتجَّتِ الجنةُ والنار»[2] فذكر الحديث، وفيه: «فقال للجنة: أمّا أنتِ رحمتي أرحمُ بك من أشاء» فهذه رحمةٌ مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسمَّاها رحمة لأنَّها خُلقت بالرحمة وللرحمة، وخصَّ بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء.

ومنه قوله ﷺ: «خَلَقَ الله الرحمةَ يوم خلقها مئة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض»[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩].

---

(١) التبيان (ص ٦٠).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣١٤) والبخاري (٤٨٥٠) في التفسير، باب: قول الله تعالى: ﴿وتقول هل من مزيد﴾ ومسلم (٢٨٤٦) (٣٦) في الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٣٤) والبخاري (٦٤٦٩) في الرقائق، باب: الرجاء مع الخوف، ومسلم (٢٧٥٢) (١٨) في التوبة، باب: سعة رحمة الله تعالى.

ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديماً وحديثاً، وهو قول الداعي: اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك. وذكره البخاري في كتاب «الأدب المفرد» له عن بعض السلف، وحكى فيه الكراهة، قال: إن مستقر رحمته ذاته، وهذا بناء على أنَّ الرحمةَ صفةٌ، وليس مرادُ الداعي ذلك، بل مرادُه الرحمة المخلوقة التي هي الجنة، ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظر دقيق جداً، وهو أنه إذا كان المرادُ بالرحمة الجنة نفسها، لم يحسنْ إضافة المستقرّ إليها، ولهذا لا يحسنُ أن يقال: اجمعنا في مستقرّ جنتك، فإنَّ الجنة نفسها هي دار القرار، وهي المستقرُّ نفسه، كما قال: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٧٦].

وأما البركة فكذلك نوعان أيضاً:

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تُضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلحُ إلا له عز وجل، فهو سبحانه المُبارِك، وعبده ورسوله المُبارَك، كما قال المسيحُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارَك[1].

● ● ●

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٦).

الفصل الخامس

الحكمة في اقتران أسماء الله تعالى وختم الآيات بها

أمر سبحانه بتدبّر كلامه والتفكّر فيه، وفي أوامره ونواهيه وزواجره، ولولا ما تضمّنه من الحكم والمصالح والغايات المطلوبة والعواقب الحميدة؛ التي هي محل الفكر لما كان للتفكر فيه معنى، وإنما دعاهم إلى التفكّر والتدبّر؛ ليطلعهم ذلك على حكمته البالغة وما فيه من الغايات والمصالح المحمودة التي تُوجب لمن عرفها إقراره بأنه تنزيل من حكيم حميد.

فإنَّ ما في خلق الله وأمره من الحكم والمصالح المقصودة بالخلق والأمر والغايات الحميدة أمرٌ تَشْهَدُ به الفطر والعقول، ولا ينكره سليم الفطرة.

ويذكر تعالى هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه تنبيهاً على أنهما إنما صدرا عن حكمة مقصودة مقارنة للعلم المحيط التام لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦].

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١].

فذكره العزة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف، والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم.

وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة: ٣٨].

وسمع بعض الأعراب قارئاً يقرؤها ﴿والله غفور رحيم﴾ فقال: ليس هذا كلام الله، فقال: أتكذب بالقرآن؟ فقال: لا ولكن لا يحسن هذا،

فرجع القارىءُ إلى خطئه، فقال: ﴿عزيز حكيم﴾، فقال: صدقت.

وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتماً بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتى كأنها ذكرت دليلاً عليه وموجبة له، وهذا كقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، أي: فإن مغفرتك لهم مصدر عن عزة هي كمال القدرة لا عن عجز وجهل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨ وفصلت: ١٢ والزخرف: ٩] في عدة مواضع من القرآن يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام العلوية، وما تضمّنه من فلق الإصباح، وجعل الليل سكناً، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها، وأخبر أنَّ هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزّته وعلمه، ليس أمراً اتفاقياً لا يمدح به فاعله ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية.

ومن هذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقيب كل قصة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة، فوضع الرحمة في محلها وانتقم من أعدائه بعزته ونجّى رسله وأتباعهم برحمته، والحكمةُ الحاصلة من ذلك أمرٌ مطلوبٌ مقصود، وهي غايةُ الفعل لا أنّها أمرٌ اتّفاقي.

وأخبر تعالى بأنّ حكمه أحسن الأحكام، وتقديره أحسن التقادير، ولولا مطابقته للحكمة والمصلحة المقصودة المرادة لما كان كذلك؛ إذ لو كان حسنه لكونه مقدوراً معلوماً كما يقوله النّفاة لكان هو وضدّه سواء؛ فإنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فكان كلّ معلومٍ مقدورٍ أحسنَ

الأحكام وأحسنَ التقادير، وهذا ممتنع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فجعل هذا أن يختارَ لهم ديناً سواه ويرتضي ديناً غيره، كما يمتنع عليه العيب والظلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣].

وقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

فلا أحسن من تقديره وخلقه لوقوعه على الوجه الذي اقتضته حكمته ورحمته وعلمه.

وقال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

ولولا مجيئه على أكمل الوجوه وأحسنها ومطابقتها للغايات المحمودة والحكم المطلوبة، لكان كله متفاوتاً، أو كان عدم تفاوته أمراً اتفاقياً لا يُحْمَد فاعله؛ لأنه لم يرده ولم يقصده، وإنما اتفق أن صار كذلك[1].

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ: السميع العليم[2]، في الأعراف وحم السجدة،

(١) شفاء العليل ص (٢٠٠).

(٢) قال تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وقال عز وجل: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [فصلت: ٣٦].

وجاءت الاستعاذةُ من شر الإنس الذين يؤنسون، ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: ٥٦]، لأن أفعال هؤلاء معاينة تُرى بالأبصار، وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر، ويدرك بالرؤية.

كما جرت عادةُ القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة، كقوله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ [البقرة: ٢٠٩].

وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ١٣٤﴾ [النساء: ١٣٤].

والقرآنُ مملوءٌ من هذا، وعلى هذا فيكون في معنى ذلك أني أسمع ما يردّون به عليك، وما يقابلون به رسالاتي، وأبصر ما يفعلون، ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان: أحدهما قابلوها بقولهم: صدقت، ثم عملوا بموجبها، والثاني قابلوها بالتكذيب، ثم عملوا بخلافها، فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر[1].

اقتران الواسع بالعليم:

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٣).

﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقد ختم الآية باسمَيْن من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما الواسع والعليم، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه[1]، فإن المضاعف واسع العطاءِ واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق، فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أَهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه.

اقتران الغني بالحليم:

قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: ﴿واللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى، فكيف يمنُّ بنفقته ويؤذي مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حليم إذ لا يعاجل المانّ بالعقوبة. وفي ضمن هذا الوعيد والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة،

---

(١) «عطنه»: العطن: المُنَاخ حول الوِرْد، أي مَبْرَك الإبل ومَرْبِض الغنم عند المساء. وفلان ضيّق العطن: أي قليل الصبر والحيلة عند الشدائد، بخيل.

فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره.

ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون إذنه إليه، ولكمال عظمته وعلوه وسع كرسيه السموات والأرض، ولم تسعه أرضه ولا سمواته، ولم تُحِط به مخلوقاته، بل هو العالي على كل شيء، وهو بكل شيء محيط، ولا تنفد كلماته ولا تبدل، ولو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مداداً وأشجار الأرض أقلاماً، فكتب بذلك المداد وبتلك الأقلام، لنفد المداد وفنيت الأقلام، ولم تنفد كلماته إذ هي غير مخلوقة[1].

انتهى الكتاب بفضل الملِك الوهّاب، وإلى الله المرجع والمآب،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

●●●

---

(١) طريق الهجرتين ص (٤٤٦).

الفهـــارس

* فهرس الأحاديث النبوية .
* فهرس الموضوعات .

فهرس الأحاديث النبوية

* * *

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

تقسيم أسماء الله الحسنى

الباب الثالث
دلالة أسماء الله الحسنى

□□□